الإعلام والتبيين

في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين

حقق نصه وعلّق عليه وقدّم له الدكتور

سهيل زكّار

مكتبة دار الملاّح

الإعلام والتبيين

في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

الإعلام والتبيين

في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين

حقق نصه وعلق عليه وقدم له الدكتور

سهيل زكار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

بلاد الشام لدى الجغرافيين الأوائل هي صقع يحده من الشرق سقي نهر الفرات ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط ، ومن الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر ، ومن الشمال سفوح جبال طوروس المطلة على بدايات آسية الصغرى وهو ما عرف في العصور العباسية باسم : الثغور الشامية والجزرية مع بيزنطة ، وهي تتوغل عميقا حتى ما بعد مدينة طرسوس في جمهورية تركية اليوم ٠

ويعتبر هذا الموقع موقعاً متميزاً وقد كان ذا أهمية عالية للغاية بالنسبة لبلدان قارات العالم القديم الثلاث : آسية ، أوربة وأفريقية ٠ فهذه البلاد الواقعة في البر الآسيوي والمالكة لشواطىء طويلة على البحر الأبيض المتوسط قامت بدور صلة الوصل بين أفريقية وآسية براً عبر مصر وبحراً عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، وفي نفس الوقت وصلت بين أفريقية وأوربة الشرقية على اعتبار أن بداية أوربة الشرقية تاريخياً وحضاريا وبشريا ولغويا وحتى اقتصاديا، عند آسية الصغرى في نقاط التماس مع الشام ، كل هذا رغم الاقرار الجغرافي بأن البسفور يفصل بين البرين الآسيوي والأوربي ٠

وفي بلاد الشام التقت تيارات المدّ من أمواج الهجرات البشرية في العصور القديمة والوسيطة ، فالمهاجرون البداة من سهوب ما وراء النهر « ترانس أوكسانيا » في آسية الوسطى ومن الأصل « التركي ـ المغولي » وصلوا عبر عدد من حقب التاريخ الى الشام ، ولنتذكر في هذا المقام أسماء لامعة مثل : الهون ، والغز ، والتركمان ، والتتار بقيادة المغول ، والتركمان ، والتتار بقيادة تيمورلنك •

هذا من آسية أما من أوربة فان جميع الشعوب التي اجتاحت هذه القارة أو تحركت من داخلها مندفعة نحو الخارج وصلت نهايات تيارات مدها الى أرض الشام، ومن ثم تحولت الى جزر ، ولنتذكرها هنا : الحثيين ، وشعوب البحر، والاغريق ، والرومان والفرنجة مع سواهم من الشعوب الجرمانية •

صحيح أن نصيب أفريقية كان أدنى إنما علينا أن نتذكر دائماً المصريين القدماء ، والسودان ، والبربر ، وقد كان لهؤلاء جميعاً أدوارهم الخاصة • لكن رغم هذا كله فان بلاد الشام واقعة على طرف واحد من أهم الخزانات البشرية في التاريخ ، وهو شبه جزيرة العرب ، وبلاد الشام بالنسبة لهذا الخزان كانت دائماً محطة أولى تشرب بشكل متواصل ، وليست نهاية لمد ، لذلك طبعت الشام بالطابع العربي بشكل أصيل ، انما تلونت ببقية الألوان العائدة لمختلف الشعوب والأجناس ، وأدى هذا الى منح بلاد الشام وعربها مزايا خاصة لها عطاءات ايجابية رائعة ، رغم أنه حدث في بعض الأحيان أن جاءت العطاءات سلبية مضرة •

لقد كان من المفترض للألوان أن تكون مؤثراتها آنية

تزول بسرعة من أرض الشام ، لكن استمرار تدفق الهجرات في العصور القديمة والوسيطة مع البنية الجغرافية لبلاد الشام كانت عاملا حاسماً في ابقاء الألوان ، وجعلها تأخذ صفة الاستمرار ، وبالتالي لتتسبب في العطاءات السلبية ٠

اذا استعرضنا بلاد الشام من حيث البنية الجغرافية والتضاريس بدءاً من سواحل البحر الأبيض المتوسط في الغرب سائرين نحو المشرق نلاحظ أولا وجود شريط ساحلي ضيق ، ثم سلسلة من الجبال الحاجزة ، وقامت خلف الجبال منطقة قلب بلاد الشام حيث وديان الأنهار الكبيرة ، وعلى أطراف الوديان تأتي السهوب شبه الصحراوية العائدة لبادية الشام ٠

لقد سببت هذه البنية بتضاريسها المعقدة وضمن شروط الحياة في الماضي قيام عدة أنماط اجتماعية ، فهناك من حيث المبدأ نمطين رئيسيين : واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ثم هناك نمط شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، ثم نمط الأقليات المتقلصة في الجبال ، ثم نمط المجتمعات الزراعية الصناعية التجارية للمنطقة الجوفية ، وأخيراً ــ لكن ليس آخراً ــ المجتمع القبلي غير المستقر لسكان السهوب ٠

إن وجود الأنماط الاجتماعية المختلفةوالتيارات البشرية المتباينة مع ما تحمله من طبيعة الماضي في كافة الجوانب جعل بلاد الشام لا تنعم في كثير من الأحيان بالوحدة السياسية وطبعها بطابع التجزئةوبشيء من التمايزالاجتماعي والحضاري والعقائدي، فهذه البلاد غالباً ما كانت في الماضي مسرحا تلتقي فيه قوى العالم أجمع وتتصارع وتتلاقح وتتمازج ، ولذلك

امتاز تاريخ بلاد الشام بمزايا منفردة خاصة عامة ، وقامت على أرضه أكبر أحداث التاريخ الانساني وأعظمها وقعاً واستمرارية من حيث النتائج ، حتى أنه ليس من المبالغة القول : أنه طالما أن الصراعات في الدنيا مستمرة فان الشام مضطرب الأحوال ، غير مستقر الأمور ، ومعلوم أن الاضطراب وعدم الاستقرار يعني استمرارية الحركة ، والحركة طاقة ودليل حياة متدفقة وإذا ما أحسن قيادتها أعطت بشكل إيجابي ......

أمام هذا الحال يحار المؤرخ الذي يود أن يؤرخ لحدث جليل من أحداث التاريخ التي وقعت على أرض الشام في كيفية تعليل أسباب هذا الحدث ونتائجه ، فكل أمر هنا له عدة وجوه .

وينطبق هذا الحال على ما اصطلح على تسميته باسم « تاريخ الحروب الصليبية » . ويمكن أن نراه في الدراسات التي خرجت منذالقرن الماضي خاصة في أوربة ، فالدراسات هذه عللت أسباب هذه الحروب بشكل أوربي إما شرقي أرثوذكسي أو غربي كاثوليكي .

إنما بشكل عام جعل هؤلاء المؤرخون أحداث الحروب الصليبية جزءاً ــ يكاد أن يكون كاملا ــ من تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، لكن بحكم طبيعة الموضوع اضطروا الى عدم اغفال أحوال بلاد الشام ، وهكذا التفتوا بشكل غير مباشر نحو دراسة أحوال بلاد الشام قبل قيام الحروب الصليبية ، وأثناء اندلاع أحداثها ، وحيث أن بلاد الشام كانت وما تزال اقليما من أراضي الوطن العربي فان الاهتمام قاد نحو دراسة واقع

الوطن العربي وتاريخه ودور كل قطر منه في الأحداث، ونظراً للارتباط الوثيق بين الوطن العربي وبلدان العالم الاسلامي ونتيجة لتفاعل الأحداث ، فان البحث امتد نحو العالم الاسلامي ٠

وفي أيامنا هذه أخذت الدراسات تتركز حول الشام والوطن العربي مع العالم الاسلامي خاصة في القرن الحادي عشر للميلاد / الخامس للهجرة ، وأُوليَ جانب العلاقات مع أوربة المسيحية ـ ممثلة بالامبراطورية الرومانية الشرقية ـ بيزنطة ـ ودول الغرب ومؤسساته السياسية والاقطاعية والتجارية البحرية اهتماماً مباشراً ، وقد فتح هذا الاهتمام ـ الذي بدأ بشكل جانبي غير مباشر ـ مجالات جديدة للبحث وكشف عن أمور كانت مجهولة ، وعدّل بالتالي كثيراً من التفسيرات والنظريات السابقة ٠ وبعملية مقارنة سريعة بين الكتابات التي صدرت في أوربة قبل الحرب العالمية الثانية وما صدر بعدها مثل كتابي « رنسمان » و « تاريخ فيلادلفيا للحروب الصليبية » يمكن أن نرى شاهداً موضحاً ٠

ولما كانت بواكير الدراسات التاريخية قد بدأت في أوربة والكثير منها ترجم الى العربية فانه عندما بدأ العرب يكتبون عن تاريخهم ويبحثون فيه جاء نتاجهم يحمل طابع التقليد إنما بدرجات ، صحيح أن الدراسات العربية للماضي العربي سارت على ذات المنطلقات التي رسمت في أوربة ، لكنها لم تخلو من شيء من الاتجاهات الاستقلالية ، ومع مرور الأيام قويت الاتجاهات الاستقلالية ، وكشف العرب أن الدراسات الأوربية عن ماضيهم صنعت من قبل صنفين من الباحثين : المستعربون والمستشرقون ، أما المستعربون : فهم من موظفي أو عسكريي

الادارات الاستعمارية الذين مكنهم تواجدهم ، على رأس وظائفهم في الوطن العربي، من تعلم العربية ثم الاهتمام بدراسة أحوال العرب وخاصة ماضيهم • فهم على هذا هواة في البحث التاريخي لا يملكون أدوات وطرائق المحترفين وذوي الاختصاص ، ولذلك قادت أبحاثهم القراء نحو الهاوية •

أما المستشرقون : فهم في الأصل ممن احترف البحث في التاريخ الأوربي ثم تحول نحو البحث في التاريخ العربي وغالبية هؤلاء لا يحسن استخدام النصوص العربية بشكل مباشر ، ولهم ارتباطات معينة بالدوائر والمؤسسات الغربية الموقوفة على خدمة المصالح الاستعمارية ، ثم ان جُلّ مراكز الاستشراق في أيامنا هذه واقع تحت سيطرة باحثين يهود يؤمنون بالصهيونية ويعملون لصالح أغراضها • وعليه إذا كانت أبحاث المستعربين تقود نحو الهاوية فان كتابات الاستشراق تكمل المسيرة نحو الدمار الكامل •

وأمام هذا الواقع المرعب ظهر الآن على صعيد الوطن العربي جيل من الباحثين العرب بدأ يقوم بدور الفاضح لكتابات الاستشراق والاستعراب وينادي بكتابة تاريخ العرب من وجهة نظر عربية علمية هادفة •

وشمل هذا مسألة « الحروب الصليبية » ، وظهرت الى الوجود وجهات نظر عربية تسلحت بأراء منطقية وعلمية على أساس أن هذه الحروب لها أسباب أوربية مباشرة وغير مباشرة ، إنما وقائعها قامت على أرض الشام العربية وانتهت على ذات الأرض ، وأن المشكلة الأساسية فيها ليست في أسبابها الأوربية ، بل في أسباب اخفاق العرب في التصدي للغزاة

الصليبيين عندما طرقوا ديارهم للمرة الأولى ثم في عدم تمكنهم من اقتلاعهم من أراضيهم المحتلة إلا بعد وقت طويل للغاية .

والمسألة بديهية فالجسد الضعيف المنعدم المناعة والموزع الطاقات هو الذي يصاب بالمرض العضال عندما يتعرض لمؤثراته ، والجسد القوي هو الذي يتصدى للمرض ويقاومه حتى إذا ما أصيب بالعدوى فانها تكون عارضة تزول بسرعة ......

من هذا المنطلق نستطيع أن نفهم سبب النجاحات الباهرة التي حققها الصليبيون عندما وصلت جموعهم سنة ١٠٩٨ م الى مشارف بلاد الشام ، فدخلت هذه الجموع البلاد واحتلت أجزاء كبيرة منها دون مقاومة تذكر ....

إنها قد فعلت ذلك لا لأن هذه الجموع تميز أفرادها بمميزات خاصة خارقة للعادة ـ كما أراد جيل أوربي سابق من الباحثين أن يقول ـ ولكن لأن الخصم العربي الذي واجهته كان من الضعف والتمزق بمكان سهّل مهمة الغزاة ويسرها ، ودام هذا الحال طيلة الوقت الذي عانى فيه العرب من الضعف العام الناشيء عن تمزق قواهم ، وإلقاء بأسهم بينهم ، وعندما شرع العرب في توحيد صفوفهم ، ونبذ خلافاتهم الداخلية جانباً ، وتوجيه قواهم نحو خصومهم الحقيقيين ، حلت الفرقة بين صفوف خصومهم وأصابهم التمزق وهكذا بدت أيام بقاء الغزاة الفرنجة في بلاد الشام مرهونة بالوقت .

لما سلف ذكره فان التفاسير التي صنعت في أوربة لتعليل أحداث تاريخ الحروب الصليبية مرفوضة تماماً ومرفوض معها بالتالي المراحل التي حددت وقيل بأن هذا التاريخ قد

مرّ بها على أساس عدد الحملات الكبرى التي جاءت من أوربة، ذلك أنه كانت هناك حملة واحدة مستمرة تصلها النجدات بشكل متواصل براً وبحراً إنما بأشكال مختلفة وبأحجام متفاوتة ٠

وحين نقوم بعملية الرفض هذه نحن مطالبون ببديل مقنع بشكل منطقي لا عاطفي ، والبديل هنا ينبع من الأرض العربية ـ خاصة في الشام ـ حيث قامت المعارك ، وحدثت الوقائع ، إنما قبل طرح النظرية البديلة هناك حاجة ماسة تقضي بالقاء نظرة متفحصة عامة على مجمل ما حدث ، وبذلك يسهل فهم ما تمت الاشارة اليه من قبل وما سيشار اليه فيما بعد ٠

والعمل المتوجب علينا تنفيذه الآن هو الحديث عن :

١ ـ أحوال أوربة بجزئيها الغربي والشرقي في العصور الوسطى وخاصة في القرنين العاشر والحادي عشر ٠

٢ ـ أحوال بلاد العالم الاسلامي بجناحيه الغربي والشرقي ٠

٣ ـ أحوال بلاد الشام والجزيرة بشكل خاص ومركز ٠

٤ ـ طبيعة العلاقات الاسلامية العربية مع كل من أوربة الشرقية الأرثوذكسية وأوربة الغربية الكاثوليكية ٠

٥ ـ الغزو الصليبي لبلاد الشام والجزيرة واحتلال الأرض ٠

٦ ـ حرب الاسترداد العربية ومراحل أعمال التحرير ٠

إن هذا يصلح ـ فيما لو نفذ بشكل مفصل ـ مخططاً لدراسة مطولة عن تاريخ الحروب الصليبية، على أمل أن تسمح الأيام بالتنفيذ ، لكن في هذا المقام نعمد الى التنفيذ الموجز الذي يليق بالمقدمات ، على أمل أن الطرح الموجز قد يثير ما يدفع على الاستمرار أو التعديل أو التغيير ٠

* * *

وصلت الامبراطورية الرومانية الى قوتها وعظمتها أيام حكم أوغسطس الذي كان أول أباطرتها ، فصارت سيدة لأوربة ولأجزاء هامة للغاية من آسية وأفريقية ، وغدا البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية ، وأداة وصل لأجزاء الامبراطورية في آسية وأفريقية وأوربة ، وحملت السفن القمح والمنسوجات وكافة أنواع البضائع المرئية وغير المرئية ـ الفكرية ـ الى قلب الامبراطورية ، وصارت كل الطرق تقود الى روما ، واستهلكت روما في البداية كل شيء صدّر إليها ٠

ومن المقرر أن الدول الامبراطورية بعد ما تصل الى الذروة بوساطة الأداة الحربية المفرغة من العقيدة الأممية لا تستطيع المكوث في القمة طويلا بل تأخذ بالانحدار ، لكن ليس في طريق العودة نحو الأصول، إنما في الطريق نحو النهاية المحتومة ٠

وفي أيام أوغسطس حققت روما أمجاداً عسكرية طائلة ، لكن المجتمع الروماني الذي كان سيده صاحب السيف ، عانى آنئذ من الانحلال الفكري والعقائدي والديني ، فلم تعد الديانة الرومانية الوثنية الملفقة من عدة ينابيع وأصول

مستوردة بكافية لمتابعة الأخذ بها، كما أن المدارس الفلسفية من رواقية الى افلاطونية محدثة لم تستطع تقديم الزاد الروحي لشعوب الامبراطورية ، وزاد الرومان من الاستعارة من عقائد الشرق لكن ذلك لم يغنهم • وكانت هناك اليهودية ، لكن هذه الديانة بعنصريتها وانغلاقها على أتباعها وبما لحقها من انحرافات ، عجزت عن أن تقوم بدور فعال داخل المجتمع الروماني ، ذلك المجتمع الذي بلغ الفساد فيه الحد الذي جعل كل شيء قابلا للبيع من ذمم الساسة والقادة العسكريين الى ضمائر الكهان •

وعلى ذلك نلاحظ أن المجتمع الروماني كان يعاني من الفراغ الديني الروحي والعقائدي العام الذي يربط بين شعوب الامبراطورية فيأخذ بها من مرحلة تحكّم شعب واحد بعدد من الشعوب الى مرحلة الأممية العقائدية ، ويلاحظ أيضاً قيام عدد من المحاولات لملء هذا الفراغ ، ولقد صنعت غالبية هذه المحاولات في الشرق ، وتحققت لواحدة منها فقط صنعت في بلاد الشام نجاح كبير •

ففي أيام أوغسطس ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام في بلدة بيت لحم في فلسطين ، ولد كما هو مجمع عليه في كافة المصادر ، من أم عذراء لم يمسسها بشر قط ، على أنه هناك خلاف حاد في المصادر حول الحياة المبكرة، وحتى المتأخرة للسيد المسيح ، وشدة الخلاف حول مراحل حياته دفع بعض الباحثين في أيامنا هذه الى انكار وجوده تاريخياً، والذي اعتدل قال بأن المعلومات المتوفرة عنه في المصادر المسيحية فيها زيف كبير واختراع مفضوح • ومهما بلغت درجة الخلاف ، فانه من

المؤكد أن رسالة السيد المسيح كانت طوال حياته عبـارة عن حركة اصلاحية داخـل الديانة اليهوديـة ، أي كانت محليـة ضيقة ، على أنه بعد غيبة المسيح ـ والبعض يذكر في أيـامه الأخيرة ـ نقلت الحركة الى العمـل العالمي ، ومن المقـرر أن الذين تولوا عمليات نشر المسيحية في العالم هم غير المسيح ، ولقد كان لعمليات النشر هذه انعكاسات متميزة على الديانة المسيحية تبعاً للزمان والمكان، وخلال قرون ثلاثة اضطرت المسيحية أولا للرومنة بشكل عام ، وللتأقلم مع كل بلد وشعب بشكل منفرد ، فكان نتيجة هذا قيام عدة ديانات مسيحية متصارعة ، ولهذا أخفقت روما في البقـاء وجاءت العصور الوسطى التي كـان الصراع بـين الديانات المسيحية لقرون أهـم مزاياها والصانع الأكبر لأحداث أوربة في العصور التي وصفت بأنها كانت مظلمة ·

إن معلوماتنا عن تاريخ المسيحية في عصورها الأولى هي معلومات غير مؤكدة ، ثـم ان المتوفر مـن الأخبار عن انتشار المسيحيـة والطرق التي اتبعتهـا أيضاً غـير كافيـة وفيهـا الكثير من الغموض ، على أنه رغم كل هذا نجد أنه من الثابت أن الفضل الأول في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ، ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط بهـا من مبادىء المسيحية الخلقية مع أمور الحياة والموت وغير ذلـك يعود الى القديس بولص ، وهو أيضاً المنظم الأول للكنيسة ، وباني أركانها الأساسية ·

وسهّل على المسيحية الانتشار في العالم الروماني توفـر طرق المواصلات وتوفـر الأمن واستتبابه مع اعتمـاد جميع المقاطعات الرومانية لاحدى لغتين هما : اللاتينية والاغريقية، صحيح أن هذا يسّر نشر المسيحية ، لكنه منذ البداية مهّـد

لفصمها ، فكان هنـاك أولا مسيحيتان : أولى لاتينية وأخرى اغريقية ٠

ليس المكان هنـا للتأريخ للمسيحيـة والبحث المفصل في انتشارها في عالم الامبراطورية الرومانية ، بل يكفي الذكر أنه مع نهاية المئة الثالثة لميلاد المسيح ، غدت المسيحية بأتباعها قوة لها اعتبارها داخل الامبراطورية الرومانية ، ولا يمكن سحقها ، ولا يجوز للساسة تجاهلها أو الاستهانة بها ، وقد دفع هذا الحال العـديد من الساسة الرومان الى اعـادة النظر في مواقفهم من النصرانية وأتباعها، خاصة أيام الأزمات الداخلية والحـروب الأهليـة ، وفي سـنة ٣١٣ م أصـدر الامبراطور قسطنطين الكبير مرسوماً في ميلان « عرف فيما بعد باسم مرسوم ميلان » اعترف بـه بالمسيحية كشرعة قانونية يحـق لأتباعها ومعتنقيها اعلانها ، وممارسة طقوسها بكل حرية ، مثلها مثل الديانة الوثنية الرسمية ٠

وكان لهذا المرسوم أبعد الأثر ، حتى أن البعض رأى فيه بداية العصور الوسطى ، ولئن اختلفت الأراء حـول الدوافع التي حرضت الامبراطور قسطنطين الكبير على اصدار مرسوم ميلان ، فان هناك شبه اجماع بأن هذا المرسوم لم ينـه عهد الاضطهاد الرومـاني للمسيحية بـل هيأ الفرصة أمـام هذه الديانة للانتشار ، ونقلها من مكانة المضطهد من قبل السلطة الى مكانـة المدعوم ، ثم الى السلطة ذاتهـا ٠ وهـكذا سارت المسيحية على سنن غيرها من الديانات الكبرى السابقة ، فغدت الى حد كبير احدى أدوات السلطة الزمنية الكبرى ، لا بل أكبر الأدوات ، صحيح أن هذه الأداة لم تكن في كثير من المناسبات

مطواعــة ، لكنهــا غالبــاً ما جُعلت كذلك ، وتاريخ العصور الوسطى في أوربة الغربيــة والشرقية هو الى حــد كبير تاريخ للسلطة الزمنية ومشاكلها وطرق استخدامها لهذه الأداة ٠

من هنا جاءت أهمية اعترافقسطنطين بالمسيحية، ويزداد هذا وضوحاً إذا ربطناه بقيام الامبراطور قسطنطين الكبير ببناء مدينة القسطنطينية ، وجعلها عاصمة للجزء الشرقي من الامبراطورية ، ثم ازدياد سرعة الأحداث التي أدت الى شطر الامبراطوريةالى شطرين : غربي وشرقي ٠

وعندما نقل قسطنطين العاصمة الامبراطورية الى الشرق ترك روما لقدرها الذي حكم عليها بالسقوط ، وهي مدينة الشيطان ، لتقوم مكانها مدينة الله ــ على حــد قول القديس أوغسطين ــ فروما التي خلت من الامبراطور ــ الاله ــ قام فيها البابا ــ خليفــة ابن الالــه ــ وسعى البابا ليأخــذ مكان الامبراطور ، ولاقى في مسعاه هذا العديد من العقبات، وبذلت البابوية كل طاقاتها في سبيل تذليل العقبات التــي اعترضت سبيلها ، ودخلت حلبة كل صراع ، وعلى هذا فان احدى مزايا العصور الوسيطة في أوربــة الغربية قيام البابوية في رومــا وصراعها مــع الامبراطورية البيزنطية ومــع حكام أوربــة الغربية من أجل مدّ نفوذها وجعله يشمل العالمأجمعكما كان حال أباطرة روما العظام ٠

ولقد شهدت المسيحية منذ بداية عهودها خلافات مذهبية شديدة للغاية ، وتركزت مسائل الخلاف حول طبيعة الأقانيم الثلاث « الأب ، الابن ، روح القدس » مــع طبيعــة العلاقــة بينها ، ثم طبيعــة السيدة العذراء أم عيسى ٠ وتفجرت أولى

أكبر المشاكل في الاسكندرية بين اثنين من رجال الكنيسة هما : « آريوس ، وأثناسيوس » حول تحديد العلاقة بين « الأب والابن » فقد قال آريوس إن العقل والمنطق يحتمان وجود الأب قبل الابن ، وأنه تبعا لهذا يكون المسيح الابن مخلوقاً للأب ، وعليه هو أدنى منه منزلة ، ولا يمكن أن يعادله بالمكانة والقدرة ، أو بكلمة أخرى : إن المسيح مخلوق لاله عظيم وحيد متفرد بطاقاته وصفاته، وإذا لم يكن الحال كذلك فان المسيحيين يكونون غير مؤمنين بعقيدة التوحيد ، ويعبدون أكثر من إله ·

ورد عليه أثناسيوس بقوله : إن فكرة الثالوث المقدس تقتضي أن يكون الابن مساوياً للأب ومن نفس العنصر تماما ودونما خلاف في القدرة والمكانة ، كل هذا رغم تميزهما عن بعضهما البعض ويبدو أن أثناسيوس والذين اتبعوا خطه فيما بعد كانوا يدركون أن المسيحية تعتمد بأصولها على ما صيغ حول المسيح، وما تم منحه له من صفات سامية، ومكانة علوية ، وأن كل اتجاه للتقليل من هذه المكانة سيؤدي حتماً الى اضعاف الدعوة المسيحية ، والغاء مسوغاتها ·

لقد كان آريوس أكثر ثقافة من منافسه ، وقد أيده المثقفون في الشرق ، لكن أثناسيوس كان أكثر عاطفية واثارة للجماهير ، ولهذا لاقت أفكاره قبولا شعبياً ، وعمت فيما بعد في الغرب الأوربي الذي كان متخلفاً عن الشرق ثقافيا وحضاريا·

واشتد الجدل بين الرجلين ، وتدخلت الامبراطورية عن طريق المبعوثين فلاقت جهودها الاخفاق ، فتقرر عقد مجمع مسكوني مقدس لبحث قضية الخلاف ، وهكذا عقد في نيقية

سنة ٣٢٥ م برئاسة الامبراطورية قسطنطين ــ الذي قيل بأنه لم يكن معمداً ــ أول مجمع في تاريخ المسيحية، وستتلو هذا المجمع في المستقبل مجامع كثيرة ذات سمة عالمية ابتغت حل المشاكل الكبيرة ، واستهدفت وحدة الكنيسة ، لكن بلا فائدة فرقعة الخلافات كانت كل يوم تتسع ، والفراق يزداد ، لكن مع الأيام حققت الأثناسيوسية المزيد من المرابح ليس في الغرب فقط وإنما في الشرق أيضا ، وهكذا دخل الى العقيدة مسألة تقديس الشهداء والقديسين ، وقامت قضية عبادة المخلفات المقدسة والصور ، وانتصرت الحركة « الايقونية » [عبادة الصور] وحدث اقبال شديد على اقتناء الآثار المقدسة والصور، وسعت كل كنيسة من الكنائس نحو الحصول على بعض الآثار المقدسة وصناعة المزيد من الايقونات ، ومع الأيام علت شهرة بعض الآثار والصور على سواها ، وأذيع حولها الكثير من معجزات وكرامات وأحاديث عن شفاء الأمراض وحل المعضلات وجلب السعادة والغاء التعاسة الى غير ذلك كثير ، وأقبل الناس على الاكثار من زيارة الآثار المقدسة للتبرك بها ، وصار هذا الأمر عادة ما لبثت أن تطورت كثيراً حتى صار المؤمنون يسافرون من بقعة الى أخرى لزيارة الآثار والكنائس والأديرة الحاوية لها مع قبور القديسين ومشاهدهم ، وهكذا جاء الى الوجود عقيدة جديدة دخلت الى أركان الديانة المسيحية وهي عقيدة الحج ، وتبارى الناس في زيارة القديسين والآثار الأعظم مكانة ، وحيث أن أرض ميلاد المسيح تضم أعلى الآثار مكانة وقدسية ، فقد أخذ البعض يسافرون نحو فلسطين ، ومنذ القرن العاشر للميلاد ، ازداد تيار الحج الى فلسطين ، وعظم عدد الحجاج بشكل ملحوظ جعل بعض المؤرخين العرب يأتي

على ذكرهم للمرة الأولى ، ولقد ترافق هذا مع قيام جمهوريات ايطالية البحرية ونشاطاتها المؤرخة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، لذلك شجعت حركة الملاحة على اقبال الحجاج الى فلسطين ، وبدأت بعض المؤسسات التجارية والسياسية الأولى تسعى للحصول على تسهيلات خاصة من سلطات جنوب بلاد الشام وشرعت في اقامة مراكز لخدمة الحجاج في فلسطين على شكل فنادق ومشاف ٠

وعندما كان الحجاج يعودون الى ديارهم حملوا معهم تقارير وافية عن أحوال بلاد الشام والمشرق العربي من كافة النواحي ، وبالغوا في تصوير أحوال الرفاه وكثرة الثروات ، كما تم الالحاح بشكل منقطع النظير على قضايا الخلافات الدينية والصراعات المذهبية التي تجددت بشكل عنيف في القرن الحادي عشر ، وهذه مسألة سنعرج عليها فيما بعد ٠

ومنذ القرن السابع للميلاد حدثت الفتوحات العربية الكبرى ، وانتزع الاسلام من المسيحية فلسطين ، دار قيام هذه الديانة ، كما انتزع منها بقية الشام مع مصر وبلدان شمال أفريقية ، ثم الأندلس مع عدد من جزر البحر الأبيض المتوسط ٠

وهكذا حاصر المسلمون أوربة الغربية من جميع منافذها وهددوها وبشكل متواصل ، وكان الحصار الاسلامي جديداً بالنسبة لأوربة حيث شمل الجوانب العقائدية الدينية واللغوية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية ، وأخذ سمة حربية توسعية ذات أهداف دينية مقدسة ٠

لقد دفع هذا الحصار أوربة الغربية نحو تغيير بنيانها

بشكل جذري كامل ، كما دفعها الى اكتشاف الأجزاء الشمالية منها ، والتحول ــ مؤقتاً ــ من بلد متوسطي الى شيء آخر ، وقامت أوربة الآن بالاعتماد على انتاج الغذاء خاصة القمح بدلا من الاستيراد الذي توقف ، وهكذا أخذت صيغة المجتمعات الأوربية تتغير ، ونشأت أسس علاقات اجتماعية زراعية جديدة هي التي ستكون أصل نظام الاقطاع في أوربة الغربية، وفي نفس الوقت انقضى عصر اللغة اللاتينية وثقافتها الكلاسيكية ، وبدأت لغات عامية ولهجات أصلها جرماني تحل محل هذه اللغة ·

إن قيام هذه الأحداث الحاسمة دفع عدداً من الباحثين الأوربيين الى القول بأن سقوط روما الغربية جاء بعد قيام الاسلام ، وبسبب الفتوحات العربية ، ذلك أن مشكلة هذا السقوط لا يجوز جعل سببها سياسياً فقط ، بل ينبغي أن يكون هذا السبب شاملا لجميع الجوانب من عقيدة واقتصاد وثقافة ولغة وقانون وعلاقات اجتماعية ثم مؤسسات سياسية جديدة ·

ويلاحظ أنه في الوقت الذي أرسيت فيه قواعد النظم الأوربية الجديدة ، كانت الامبراطورية البيزنطية بدورها قد أوجدت الحلول لكثير من مشاكلها الداخلية والخارجية، صحيح أن الفتح العربي انتزع منها أملاكها في آسية وأفريقية ، لكنه في نفس الوقت حررها من أعباء ثقيلة ، ذلك أن هذه الممتلكات لم تمحض الولاء قط للادارة الامبراطورية وعبرت شعوبها عن نزعاتها الاستقلالية بأشكال مختلفة · وحين تمكنت بيزنطة من حل مشاكلها استردت قواها الاقتصادية والعسكرية براً وبحراً ، وتوحد مجتمعها دينيا بانتصار التيار المؤيد لعبادة الصور ·

وفي الوقت نفسه وفي المقابل نجد أنه منذ أواخر القرن التاسع للميلاد أخذت أركان الخلافة العباسية تتصدع، وقواها تنهار ، وأطرافهـا تتمزق ، كما أن الاضطرابات الداخليـة والثورات الحادة ازدادتفي الأراضي الاسلامية الى درجة شغلت جيوش الخلافة عن الالتفات الى المخاطر الخارجية كمـا دفعتها نحو اهمال الاسطول،وهكذا بدأ المد" العربي يتحول الى جزر ٠

فقد قامت الخلافة الفاطمية في تونسوكان من نتائج ذلك انهيار نظام الرباطات المتوسطية ، وانهارت الخلافة الأموية في الأندلس ، وحل محلها دول الطوائف المتصارعة ، ونشطت حرب الاسترداد نشاطاً مروعا ، ثم انتقل الفاطميون الى مصر حيث غرقوا في مشاكل صراعاتهم مع أمراء الشام والقرامطة مع مشاكل أخرى داخلية عقائدية ومتنوعة ، ونشطت بيزنطة عسكرياً ضد بلاد الشام ، وعجزت الدولة الحمدانية عن ايقاف التحرك البيزنطي وأدى هـذا الى انهيار نظام الثغـور والى احتلال بيزنطة لأجزاء كبيرة من شمالي بلاد الشام وسواحلها٠

ذلك أن الاهتمام الأوربي بالبحـر الأبيض المتوسط تجدد ، وعملت أوربـة الغربيـة على العـودة من جـديد الى الحيـاة المتوسطية ، فالاندفاع الأوربي نحو الشمال أدى فيما أداه الى اندفاع شـعوب الشمال ذات الطاقات البحرية الخلاقـة نحو شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وتجلى هذا بغارات شعوب الفيكونغ على الشواطىء المتوسطية الأوربيـة والاسلامية في الاندلس والمغرب ، وجـاء بعـد الفيكونغ النورمان وقامت جمهوريات ودويلات ايطالية البحرية ٠

ويرى الباحثون أن الحصار العربي لأوربة الغربية أثمر

في قيام الامبراطورية الكارلونجية وهذا ما عناه المؤرخ البلجيكي بيرين بقوله : « لولا محمد لما كان شارلمان » ، واندفاع شعوب الشمال نحو الأراضي الكارلونجية أدى فيما أداه الى سقوط هذه الامبراطورية والى انتصار نظام الاقطاع، ومع انهيار امبراطورية شارلمان قامت الحروب الداخلية بين الاقطاعيات ، وازدادت البابوية قوة وأخذت تنشط ـ بالاضافة الى العمل الديني ـ سياسياً واجتماعيا، واقتصاديا، وحتى عسكريا رغم أن الديانة المسيحية بالأصل تحرم الحرب واستخدام العنف •

وراجت في أوربة منذ القرن العاشر نبوءات وتيارات ، وشاعت بين جماهير الأوربيين روح دينية صليبية متعصبة بشكل حاد ، وعدوانية في نفس الوقت ، وقد غذت هذه الروح حرب الاسترداد في الإندلس بامكانات تكاد أن تكون غير محدودة حتى بات وجود العرب في الأندلس رهينا بالوقت فقط وهددت سواحل صقلية مع الشمال الأفريقي ، وأخذت تتضح صورة مخطط أوربي يستهدف فك الحصار العربي من جهة الغرب باسترداد صقلية واحتلال شواطىء من تونس بحيث تتوفر حرية الملاحة الأوربية وتتحقق السيادة للقوى البحرية الأوربية من جديد على شواطىء المتوسط • ولقد تحقق هذا كله لأوربة قبيل نهاية القرن الحادي عشر ، وبعد تحققه في الغرب حدث الالتفات الأوربي نحو الشرق فكانت أحداث ما عرف باسم الحروب الصليبية •

وفي القرن الحادي عشر حدثت تغييرات جذرية في أراضي المشرق العربي ومغربه ، فقد حدثت يقظة جديدة في المشرق

ترافقت مع هجـرة شعوب الغُز ـ التركمان ـ من منطقـة ما وراء النهـر الى خراسان والعراق والجزيرة والشام مـع أرمينية وآسية الصغرى ، وقد نجم عن هذه الهجرة فيما نجم قيـام السلطنة السلجوقية حيث دعمت قوى اليقظـة وأمدتها بقوى فكرية منظمة وان كانت تحوي عناصر تعصب شديدة وجديدة على الحياة العربية ٠

وانتقلت روح اليقظة الجديدة من الأراضي المشرقية الى المغرب ، فحلت بتونس أولا ثم قفزت نحو الصحراء فنجم عنها قيام حركة المرابطين وتأسيس دولتهم وبناء مدينـة مراكش العتيـدة ٠

وفي الشـرق تضررت الامبراطورية البيزنطية من هجرة التركمان الى أراضيها بالغ الضرر لذلك سعت الى طردهم من داخل أراضيها واقفال حدودها في وجههم، فحشدت لهذه الغاية كل طاقاتها العسكرية واستعانت بأعداد كبيرة من المرتزقة ، وجاء عدد كبير من هؤلاء المرتزقة من أوربة الغربية ، وهكذا تسنى لرجالات أوربة الغربية الحصول على مزيد من المعلومات عن أحوال المشرق العـربي وطرائق العـرب في الحيـاة العـامة والقتال ، كما حصلت على وصف أوفى للثراء والرفاه المتوفر، ولا شك أن هذا كان له أثره في النفوس وخاصة لدى ادارات الجمهوريات والدويلات البحرية الايطالية ٠

وأخفقت الامبراطورية البيزنطية في الوصول الى أهدافها المبتغاة ، وكان نصيبها أن حلت بها كارثة عسكرية مروعة ، فلقد حطم السلطان ألب أرسلان المؤسسة العسكرية البيزنطية على أرض معركة منازكرد قرب بحيرة وان في تركية حالياً ٠

ففي هذه المعركة الحاسمة التي نشبت سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م هزم المسلمون جيوش الامبراطورية العتيدة وأسروا الامبراطور رومانوس ديجانس ، فكان أول امبراطور يقع في أسرهم ، في الحقيقة جاءت منازكرد لتكمل الانجاز الذي صنع في معركة اليرموك ، ذلك أن هذه المعركة رسمت طريق النهاية لحياة الامبراطورية الرومانية الشرقية لتحل محلها الامبراطورية العثمانية المسلمة التي ورثتها دولة تركية الحالية •

لا شك أن معركة منازكرد كانت احدى معارك التاريخ الكبرى ، فعلى الرغم من تقاعس السلطان ألب أرسلان عن استثمار نتائجها بشكل مباشر، فانها أعطت الكثير من العطاءات بقوة دفع ذاتية ، ولقد دقت أصداء النصر المبين في منازكرد بوابات أوربة بعنف ، وأحدثت في أرجاء القارة ذعراً يماثل الذعر الذي أحدثه الفاتحون العرب الأوائل ، وهكذا وصلت الى أوربة الغربية وفود أرسلتهم القسطنطينية تطلب العون ، وتنشد النجدات وتفاوض من أجل الوحدة بين الأرثوذكسية والكاثوليكية •

وكما سلفت الاشارة عندما وقعت منازكرد في الشرق كانت أراضي المغرب الأقصى تشهد نجاحات متوالية لحركة المرابطين ، وهكذا بعد ثلاث عشرة سنة من منازكرد عبرت جيوش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين مضيق جبل طارق ألى أرض الأندلس، وأوقعت بجيوش حرب الاسترداد الصليبية هزيمة نكراء في الزلاقة ــ قرب بطليوس في منطقة الحدود البرتغالية الاسبانية الحالية ــ ومن جديد قرعت أصداء نصر الزلاقة بوابات أوربة من الجهة الغربية بعنف شبيه بالعنف الذي كان يوم افتتح طارق وموسى الأندلس ، ولا شك أن ذلك

كان له أبعد الأثر على نفسية سكان أوربة الغربية مما ساعد بشكل كبير على نجاح حركة التبيشير بالحروب المقدسة التي قادها مبشرون عدة حفظ لنا التاريخ ذكر أشهرهم وهو بطرس الناسك .

إنه لما يؤسف له أن السلطان ألب أرسلان لم يعش طويلا بعد نصر منازكرد كما أن امبراطورية السلاجقة ذاتها لم تعمر غير بضع سنوات لتنهار وتحل محلها قوى صغيرة متصارعة من أجل السلطة ، وكان معنى هذا انتكاسة كبيرة لقوى العرب والمسلمين في المشرق ، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار النفقات الهائلة التي تحملها أهل المشرق حتى قامت سلطنة السلاجقة ، وعدم تمكنهم في الفترة الوجيزة التي عاشتها من استرداد عافيتهم ، ثم اضطرارهم بعد ذلك الى تحمل المزيد من الأعباء ، وقد مكن انهيار سلطنة السلاجقة الامبراطورية البيزنطية من استرداد عافيتها وتمالك جأشها ثانية للمشاركة في عمل هجومي جديد ضد بلاد الشام والجزيرة .

وعلى صعيد المغرب حدث نفس الشيء تقريبا ، ففي الوقت الذي كان فيه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يعد الخطط ليس فقط لتحرير جميع أراضي الأندلس بل لاستئناف حركة الفتوح العربية داخل أوربة ، في هذا الوقت ظهر في المغرب المهدي بن تومرت حيث بدأ نشاطه وهو ما قاد الى قيام حركة الموحدين التي تكفلت باسقاط دولة المرابطين بعد حروب أهلية مريرة ، وإقامة امبراطورية الموحدين .

لقد أعطى هذا كله أوربة بشطريها المزيد من الفرص للاقلاع براً وبحراً بهجمات مضادة على الاسلام في عقر دار

العروبة ، وكان عرش البابوية في روما قد احتكره أفراد أسرة يهودية ايطالية يقال بأنها تظاهرت بالمسيحية ، وقد تخرج من مدرسة هذه الأسرة اليهودية البابا آوربان الثاني ، وهو الذي قام باعلان الدعوة للحروب الصليبية وأعدّ الخطط لها للتوجه نحو المشرق العربي •

ليست النية متجهة هنا للحديث بتفاصيل عن الخلفيات الأخرى لحوادث تجمهر أعداد كبيرة من شعوب أوربة للسير نحو المشرق فهذا الأمر له صلة بنظام الاقطاع وصراعاته الداخلية وتوجيه الطاقة الحربية الداخلية الى عمل خارجي ، وكذلك بالوضع الاقتصادي لأوربة مع العلاقات الاجتماعية والانفجارات السكانية، وهذه مسائل أسهب الكتّاب الأوربيون في بحثها •

المهم هنا الحديث عن اندفاع أعداد هائلة من شعوب أوربة على شكل مجموعات براً وبحراً باتجاه الشرق ، فبعد العديد من الأزمات والمشاكل عبرت هذه الحشود التي قيل بأنها فاقت مجتمعة المليون انسان من أوربة الى آسية الصغرى تريد الوصول الى القدس •

يقتضي الحال منا الآن وقفة نستعرض فيها أولا أوضاع آسية الصغرى ثم بلاد الشام والجزيرة ، وهي البلاد ستكون مسرح عمليات الحروب الصليبية :

فبعدما أخفقت الامبراطورية البيزنطية في منع التركمان من الهجرة الى أراضيها ، اندفعت إثر معركة منازكرد أعداد كبيرة من قبائل التركمان متوغلة داخل آسية الصغرى واستطاع سليمان بن قطلمش وهو من أفراد الأسرة السلجوقية أن يحتل

مدينة نيقية ، واتخذ من هذه المدينة القريبة من القسطنطينية مركزا لدولة تركمانية جديدة عرفت باسم « دولة سلاجقة الروم » . واستولى سليمان على مناطق الثغور الشامية ثم نجح في سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ في أخذ مدينة أنطاكية ، وكانت هذه المدينة واقعة تحت الحكم البيزنطي منذ أيام الدولة الحمدانية في حلب في القرن العاشر للميلاد .

وعقب احتلال سليمان لأنطاكية تطلع نحو حلب ، ودخل في صراع من أجلها مع القوى البدوية العربية في الشام والجزيرة بقيادة مسلم بن قريش العقيلي ثم مع تتش بن ألب أرسلان حاكم دمشق السلجوقي، وقتل سليمان في هذا الصراع كما قتل مسلم بن قريش ، وجاء السلطان ملكشاه بنفسه الى شمالي الشام حيث تسلم كل من حلب وأنطاكية ، ثم عاد نحو المشرق ، وقبل عودته في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م ترك في حلب نائباً عنه يدير حكم شمالي بلاد الشام اسمه آق سنقر قسيم الدولة . كما ترك في أنطاكية حاكماً اسمه يغي سغان ــ أوسيان ــ وكان برفقة كل واحد من هذين الواليين حامية عسكرية فيها حوالي / ٤٠٠٠ / فارس .

إن مقتل سليمان بن قطلمش وانتزاع أنطاكية لم يؤد الى سقوط دولته التي أسسها في نيقية ، فقد ورث الحكم فيها أحد أولاده واسمه قلج أرسلان ، وعندما عبرت حشود الصليبيين من أوربة الى آسية حاولت قوى دولة سلاجقة الروم التصدي لهذه الحشود فعجزت عن ذلك ، وهكذا وصلت حشود الغزاة عام ١٠٩٨ م الى مشارف الشام ، فانقسم عنها فئة صغيرة توجهت نحو بلدة الرها (أورفا الحالية في تركية) حيث تمكنت من احتلالها وإقامة أول إمارة صليبية في الشرق .

ووصـــل الحشــد الأعظم أنطاكية وشرع في حصارها ، ولنقف هنا مجدداً بعض الوقت نطل أثناءها على أوضاع العرب في المشرق .

في بداية القرن الذي وصـــل في أواخـــره الصليبيون الى مشارف الشام كان المشرق العربي والاسلامي يعيش في حالة من الفوضى السياسية والعقائدية لا نظير لها ، فقد كان هناك خلافتان : واحدة في بغداد ، وثانيـــة في القاهرة ، وكانتا في صراع دائم ، ونزاع عقائدي دموي مستمر ، كما أن الأحوال الداخلية في كل من هاتين الخلافتين كانت جدّ سيئة ، حيث كان الخلفاء محكوم عليهم من قبل جند نسوا كيف يقاتلون للدفاع عن شعوب دولهم ضد الظلم والعدوان الخارجي ، وتذكروا فقط كيف يقاتلون من أجل الفتن والاستغلال والتسلط على سدة الحكم .

في هـــذا القـــرن وهـــو الخامس للهجرة / الحـــادي عشر للميلاد حدثت هجرة شعوب الغُزّ الى خراسان والعراق والشام والجزيرة وأرمينية وآسية الصغرى ، وكان البداة الغز ـ قبل تأسيس السلطنة السلجوقية وأثناء ذلك ـ قـــد أحدثوا دماراً مريعاً في كل من الشام والجزيرة ، أسهب المؤرخون في الحديث عن تفاصيل أحـــداثه ، وكنتيجـــة مباشرة لذلك ضعف سكان البلدان وهجر الكثير مـــن أهل المدن مدنهم ، وتعطل النشاط الزراعـــي والاقتصـــادي العـــام ، فنضبت الموارد ، ونهبت الموجـــودات أو أحرقت ودمرت ، كما أزيلت قـــوى المؤسسات السياسية المحليـــة ، وعندما قامت السلطنـــة السلجوقية كانت بلاد الشام على حافة الافلاس والتداعي الداخلي ، صحيح أن

قيام هذه السلطنة وادخالها للشام تحت ادارتها قد جلب بعض الاستقرار ، وسبب بعث شيء من النشاط ، لكن لسوء الحظ فان السلطنة السلجوقية لم تعمر طويلا ، لذلك لم تتوفر فرصة كافية لرأب الصدع واعادة التعمير •

ولما كانت شعوب الغز عبارة عن عشائر وقبائل بدوية كـره أفرادها الوحـدة ومجوها وألفـوا الفرقـة وأحبوها ، وارتضـوا بعـدم الاستقرار وأنفـوا من الانصياع لمنـاهج الحكومات المركزية ذات الأنظمة والقوانين، فانه ما أن انهارت السلطنة المركزية حتى تجددت الصراعات الداخلية ، وبالتالي زاد ضعف الشام ضعفاً •

لقد بحثت في تاريـخ هـذه المرحلـة البالغـة الخطورة بشيء من التفصيـل في كتابي « مدخـل الى تاريخ الحروب الصليبية » ،وألخص هنا بعض ما جاء في هذا الكتاب ، موليا الجزء الجنوبي من بلاد الشام [فلسطين] المزيد من العناية ، لأن فلسطين كانت هدف الغزاة الصليبيين ، علماً بأن هؤلاء الغزاة احتلوا حـين هجموا على الشام أجـزاء خارج فلسطين خاصـة المناطق الساحلية ، لمكانة البحر الأبيض المتوسط ، ودوره • وهكذا سنرى أنه قد طرد الصليبيين أولا من فلسطين ، ثم من أجزاء الشام •

مع نجـاح الثورة العباسية ، وقيـام الخلافة الجديدة في العراق ، بدأت تظهر الى الوجود معالم انقسام العالم الاسلامي الى قسمين : واحد أعجمي ، وآخر عربي ، ففي الجزء العربي ازدادت أهميـة مصر حتـى تمكنت من الاستقـلال عن جسم الخلافة عند تأسيس الدولة الطولونية ، ونظراً لموقف الخلافة

العباسية من هذا الاستقلال ، وسعيها للقضاء عليه عن طريق استخدام القوة العسكرية، ولأسباب ترتبط بالمؤثرات السياسية الخارجية لأي دولة مصرية مستقلة ، تجاه بلاد الشام ، فقد سعت مصر الاسلامية المستقلة نحو السيطرة على بلاد الشام ، واتخاذها خطوطاً دفاعية في العمق لصد الهجمات عن مصر ، ومعروف أن هذا العمل غالبا ما قاد نحو قيام توسع امبراطوري ٠

لقد نجحت مصر في احتلال الشام كله لكن لفترة وجيزة من الزمن ، لكنها عجزت عن الاحتفاظ بشمالي البلاد لأسباب عديدة بينها : بعد هذا الشمال عن مصر ووجود الامبراطورية البيزنطية التي رغبت دائماً بوجود دويلة اسلامية ضعيفة مستقلة أو تحت الحماية في مدينة حلب تقوم بوظيفة الحجز بينها وبين دولة مصر المستقلة ، يضاف الى هذا موقف الخلافة العباسية من استقلال مصر ثم تواجد قبائل عربية قوية في شمالي الشام طمحت الى انشاء دول خاصة بها ٠

وكانت قبيلة كلاب أكبر قبائل شمال الشام، وذات مطامح سياسية قوية ظهرت منذ القرن الأول للهجرة في معركة مرج راهط ، واستمرت حتى أثمرت في مطلع القرن الخامس بتأسيس الدولة المرداسية في حلب ثم بقيام تحالف مع كل من قبيلة كلب زعيمة قبائل منطقة دمشق وقبيلة طيء زعيمة قبائل فلسطين والأردن من أجل العمل على تحرير الشام من حكم مصر وتأسيس ثلاث دول عربية متحالفة واحدة في الرملة، وثانية في دمشق وثالثة في حلب وأخفقت المحاولة بالنسبة لدمشق والرملة ونجحت فقط في حلب ٠

ذلك أن مصر تساهلت مع فقدان الشمال لكنهـا أدركت أن فقدانها لجنوبي الشام معنـاه فقدانهـا لاستقلالهـا هي ، وكانت مدن الشام قـد شهدت قيام منظمات بلديـة عسكرية ـ ميليشيا تـ عرفت باسم الأحداث ، ولقد كان العداء وراثياً بـين الأحداث وحكومات مصر ، لذلك لـم تتمكن دول مصر الاسلامية في القرن الحادي عشر من تثبيت أركانها في الشام وبسبب جميـع ما بينت فان الأوضـاع السياسية في النصف الثاني للقرن الحادي عشر في الشام كانت كما يلي :

١ ـ دولة مستقلة في حلب تدعى الامارة المرداسية كانت تحكم معظم شمالي الشام مع أجزاء من الجزيرة ·

٢ ـ أجـزاء من شـمال الشـام وسواحـله تحت الادارة البيزنطية المتمركزة في أنطاكية ·

٣ ـ دويلة شبه مستقلة في طرابلس تحكم من قبل أسرة آل عمار ·

٤ ـ دويلة شبه مستقلة في صور تحكم من قبل أسرة آل عقيـل ·

٥ ـ دويلة مستقلة في شيزر وكفر طاب ـ قرب حماة ـ تدعى باسم الامارة المنقذية ·

٦ ـ عـدد من الاقطاعيات والادارات شـبه المستقلة في مناطق الساحل خاصة في جبلة ومنطقتها الجبلية ·

٧ ـ دمشق وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية ·

وكانت غالبيـة شعب بـلاد الشام في هـذا القرن تدين بالاسلام إنما على مذهب الاثنا عشرية ، وكان هناك مجموعات

من الاسماعيلية وسواهم ، ومجموعات من النصارى كثير منهم في الشمال وغالبية هؤلاء من أصل أرمني ، وكان هناك قلة من اليهود ، وكانت الحريات الدينية والفكرية مصانة ، وظهر ازدهار ورفاه وتقدم ثقافي وحضاري رائع من أعلامه أبي العلاء المعري ، وابن سنان الخفاجي ، وابن أبي حصينة ، وابن حيوس •

لقد كان هناك يقظة اسلامية عامة وتراجع شيعي واضح، وقد زاد من سرعة هذا التغيير قيام السلطنة السلجوقية وأكسبه التركمان أشكالا جديدة فيها عنف وتعصب شديدين •

ففي سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م دخل حلب مجموعة من التركمان بزعامة رجل عرف باسم هارون بن خان ، وقامت مجموعات أخرى عرفت بالناوكية بالتوجه نحو الجنوب والنشاط فيه بشكل كثيف ثم ظهر على مسرح الأحداث زعامات جديدة لعصابات برز من بينها واحد عرف باسم الأفشين أحدث تخريباً في جوف سورية بحيث خرّب الضياع ودمّر القلاع وقتل الناس وسلب أرزاقهم وأحرق ما لم يقدر على حمله ، ثم ظهر زعيم جديد عرف باسم أتسز بن أوق قام بانتزاع دمشق ثم فلسطين من الفاطميين حتى أنه حاول احتلال مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية •

وفي سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م حوصرت مدينة حلب من قبل جيش تركماني كبير قاده السلطان ألب أرسلان ، وأخفق هذا الجيش في اختراق أسوار المدينة فعاد أدراجه نحو الشرق ليخوض معركة منازكرد الحاسمة ، وتسارعت الأحداث عقب هذه المعركة في انتزاع سليمان بن قطلمش أنطاكية من

بيزنطة وذلك بعدما أسس امارة سلاجقة الروم ، ومات السلطان ألب أرسلان وجرت محاولات لاحتلال حلب من قبل سليمان بن قطلمش ·

ومن جديد جاء الى الشام جيش تركماني كبير على رأسه السلطان ملكشاه ، ونجم عن هذه الحملة الحاق الشام كله بالسلطنة السلجوقية ، لكن ليس تحت ادارة مركزية واحدة بل تحت عدة ادارات ، واحدة في الرها وثانية في أنطاكية ، وثالثة في حلب ورابعة في دمشق ، وقد بقيت الدويلات الساحلية متمتعة باستقلالها مع عدد من الاقطاعيات الداخلية ·

وبعد انسحاب ملكشاه الى الشرق جرت محاولات لانشاء امارة تركمانية جديدة في القدس الا أن الخلافة الفاطمية تمكنت من استردادها كما أن هذه الخلافة قامت باثارة أتباعها المذهبيين في وسط سورية ، وتفجر صراع مرير بين الحكام السلاجقة في الشام وقامت عدة مصادمات عسكرية اشتدت كثيراً عقب وفاة السلطان ملكشاه ·

وخلاصة القول أن التركمان انساحوا في بلاد الشام وتمكنوا في مدى ثلث قرن من الزمان من تدمير بلاد الشام تدميراً قلما عرفت مثيلا له في تاريخها المديد ، وعندما أشرف القرن الحادي عشر على النهاية كانت بلاد الشام في حالة من الانهاك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لا نظير لها ، وكانت هذه البلاد مثل رقعة للشطرنج فيها مربعات عديدة على كل مربع دمية لها اسمها وصفاتها ومزاياها تتصارع مع بقية الدمى ، وكات الدمى غالبيتها تركي الأصل ، غريب المولد والنشأة بلا ارتباطات بحضارة البلد ولغته وتقاليده

ومعتقداته ، وكانت كلها تتصارع في سبيل السلطة والمزيد من الأرباح الخاصة والمال فقط دونما رادع أو اعتبار ، وكان من محصلات أعمالها بالاضافة لما ذكر تحطيم قوة قبائل العرب في البلاد مع قوة أهل المدن ومنظمات الأحداث ·

وفي ذروة حالة الدمار هذه والعنف والعذاب وصلت الى أنطاكية في مشارف الشام حشود من فرنجة أوربة ذهب البعض في تقدير أعدادها الى ما يفوق المليون ما بين رجل وشيخ وطفل وامرأة ، وقيل بأن القوة المقاتلة لهذه الحشود كانت مالا يقل عن مئة ألف ما بين فارس وراجل وتابع·

لقد كان الهدف المعلن لهذه الحشود الوصول الى القدس لقضاء واجب الحج وتخليص الأراضي المقدسة من المسلمين والعرب وتحويلها الى جزء من أوربة الكاثوليكية فيما وراء البحار ·

ودخلت هذه الجموع الشام وعاثت في دياره ، واستولت على كثير من مدنه وبلدانه ، وقتلت وأحرقت وهدمت دون أن تلقى مقاومة تذكر · احتلت أولا أنطاكية، وجعلت منها مركزاً لامارة صليبية ثانية في المشرق ، ثم أخذت الحشود طريقها جنوباً ، فجردت حلب من كثير من أملاكها ومرت بمعرة النعمان مركز الحضارة والثقافة والشعر واللغة والتاريخ والفلسفة في الشام ، فدمرتها كلياً وقتلت جميع السكان فيها من بشر وحيوانات ثم تابعت هذه الحشود السير نحو الجنوب تحتل وتدمر الى أن وصلت الى القدس فحاصرتها حتى سقطت في ١٦ تموز ١٠٩٩م ، ونترك هنا وصف ما حلّ بالقدس لصاحب كتاب « أعمال الفرنجة » وهو شاهد عيان شارك في الأحداث

فها هو يقول : « تقدم واحد من فرساننا واسمه «ليتو» واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى ..... ولما ولج حجاجنا جدّوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم .... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات .

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه ، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالا ونساء ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل .... وصدر الأمر .... بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس ، وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعاً ، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي ألمت بالشعب المسلم » .

وصفت القدس للغزاة الجدد فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق وأعظمها مكانة ثم أخذوا يوسعون رقعة أملاكهم في

فلسطين ، وبعد عدة سنوات احتلوا مدينة طرابلس وأقاموا فيها دويلتهم الرابعة في الشام ·

لقد نزلت بالشام ضربة مروعة ، وأصاب العرب خزي لم يعرفوا مثله منذ قيام الاسلام ، لكن هذا كله لم يعد الرشد الى حكام دويلات الشام التركمان فاستمروا في صراعاتهم الداخلية ، واحتدم الصراع من جديد بين دمشق وحلب ، واضطر الطرفان لمهادنة الصليبيين ليتفرغوا لصراعاتهم الداخلية ، وأخذ الناس في الشام يتململون مما حصل وبدأ التململ يتحول الى أعمال ناقدة ومعارضة لتصرفات الحكام ، وأول ما انفجر الوضع في مدينة حلب ·

كان حاكم حلب عند حصار أنطاكية هو رضوان بن تُتُش ، وكان شغله الشاغل احتلال حمص ثم دمشق من أخيه دُقاق ابن تتش ، وعرف الصليبيون انشغاله في هذه المقاصد فأرادوا الاطباق على حلب لملء الثغرة القائمة بين امارتيهم في الرها وأنطاكية ، وعندما اشتد الضغط الصليبي على حلب ضاق الأمر بأهلها فتوجه في سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م وفد منهم الى بغداد ، واستغاثوا في أيام الجمع ، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالمسلمين على الفرنج ، وكسروا بعض المنابر ومنعوا الخطباء من القاء خطب الجمعة وأحدثوا هياجاً في بغداد ، فاضطر الخليفة والسلطان الى تجهيز جيش كبير عهد بقيادته الى مودود صاحب الموصل ·

وتحرك الجيش هذا ، لكنه عندما وصل الى حلب آغلق رضوان في وجهه بوابات المدينة واتخذ منه موقفاً معاديا فاضطر مودود الى الرحيل نحو دمشق حيث دخلها وتحالف مع

طغتكين أتابكها الذي أصبح سيدها بعد وفاة دُقاق بن تُتُش، لكن عندما بدأ هذا التحالف يؤتي بعض ثمـاره اغتيل مودود في مسجد دمشق في سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م وكان مغتاله من فئة الحشيشية الاسماعيلية ، ويبدو أنه كان لرضوان يد في الاعداد لهذا الاغتيال ، ومع ذلك فان رضوان توفي بعد مودود بفترة وجيزة وأخذت الأحداث تتحرك في الشام بسرعة جديدة.

وحل بساح حلب اضطراب سياسي شـديد تحرك خلاله شعب المدينة بأكثر من ثـورة أثمرت أخيراً وأدت الى تجميـد الحكام التركمان وقيام حكم شعبي يُسيِّر أمور الدفـاع عن المدينة ، وفي هذا الوقت الذي بـدأ فيه سكان شـمال الشام يستردون فيه أنفاسهم وبدأ يظهر الى الوجود جيل عربي مؤمن جديد مع روح جديدة ، في هـذا الوقت بالذات وبعـد مضي حوالي ربع قرن عـلى الغزو الصليبي ، كـان مـد التوسـع الصليبي في الشام قد وصل الى أقصى مداه، ومن ثم بدأ يتحول الى جزر .

ومعلوم أن الصليبيين كانوا قد وصلوا الى مشارف الشام جمعاً واحداً ، لكن ما أن توغلوا فيه وفتحوا بعض أراضيه حتى حل بهـم داؤه العضال ، فدب بـين صفوفهم التمزق ، وانقسموا الى عدة دويلات ، وبما أن عدداً كبيراً من رجالات الحملة الأولى كانوا قد استقروا في الشام ، فقد أنجبوا هناك جيلا جـديداً تمتع بصفات بلديـة خاصة ، وحيث أن تدفق الفرنجة من أوربة على الشام لم ينقطع ، فقد غـدا المجتمع الصليبي مؤلفـاً مـن مجموعتين متمايزتين همـا : مجموعـة البلديين ، ومجموعة الوافدين ، وبالاضافة الى هذا قـام بين صفوف الصليبيين تنظيمات غالبا ما كانت ذات صبغة عسكرية

وذات مطامح سياسية، ولقد تعقد هذا الوضع معمرور الزمن، وازدادت الفرقة عمقاً ، والخلافات حدة ، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الأولى خاصة بين صفوف الفقراء Tafurs منهم .

لقد وقعت الحادثة التي وصل المد الصليبي فيها الى مداه ثم أخذ يتحول الى جزر أمام أسوار مدينة حلب وكان ذلك سنه ٥١٨ هـ / ١٠٢٤ م ، ففي هذه السنة حضّر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت مدينة حلب في هذه الآونة تتبع رسميا لتمرتاش بن ايلغازي أحد أفراد الأسرة الأرتقية التركمانية ، وقام الصليبيون بالاتصال مع دُبيس ابن صدقة صاحب الحلة في العراق وأمير قبيلة أسد ، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل تعيينه أميرا عليها شرط أن يسمح لبعض القوات بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران العُقيلي صاحب قلعة جعبر ، ومع ابراهيم بن رضوان بن تُتُش الذي كان أبوه أميراً لحلب عندما بدأ الغزو الصليبي ، وجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم ، وزحفوا على مدينة حلب ، وأخذوا في حصارها ، وأثناء الحصار عُدّل الاتفاق بين المحاصرين فاتفقوا من جديد على أن تكون حلب لابراهيم بن رضوان ابن تُتُش « لأنها كانت لأبيه » .

ولم يكن الحاكم الرسمي لحلب مقيماً بها ، بل كانت الأمور في المدينة بأيدي شعبها الذي شكل آنئذ نوعا من أنواعات الجمهوريات للدفاع عن المدينة برئاسة قاضيها أبو الفضل بن الخشاب يعاونه مجلس يمثل زعماء المدينة وكبار العلماء .

وشدد المحاصرون تطويقهم لحلب ، وطال الحصار وامتد، وأخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على أسوار المدينة « وقطعوا الشجر ، وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين وأخذوا توابيتهم الى الخيم، وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا الى ما كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا عليّكم ، وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب، وقالوا : يا مسلم أبصر كتابكم ، وثقبه الفرنجي ، وشده بخيطين وعمله ثفراً [السفر : السير الذي يجعل في مؤخر السرج] لبرذونه ، وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين » ٠

ولم يؤثر هذا — على شدته — على معنويات الحلبيين ، فداوموا على الدفاع ، وازدادوا اصراراً على المقاومة ، « وبلغ بهم الضر الى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض » ٠ ويحدثنا مؤرخ حلب الصاحب كمال الدين عمر بن العديم عن بعض شهود العيان بأن الصليبيين « كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في أزقة البلد ، فاذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى الى فراشه » ٠

و « ولما اشتد الحصار على حلب، وقلت الأقوات بها وضاق الأمر » بالحلبيين اتفق رأيهم على تسيير وفد الى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان آنذاك مقيماً في مدينة ماردين

مشغولا بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلا من البلد ، وعلم الفرنج بخبره ، وحاولوا اعتقاله فأخفقوا ، ورغم هذا حاولوا أن يوهموا أهل المدينة أنهم اعتقلوا رجالات الوفد ، لكن ذلك لم ينطل على الحلبيين ، وعرفوا بعد وقت نبأ وصول وفدهم سالماً الى ماردين .

وفي ماردين واجه الوفد مفاجأة كبرى غير متوقعة ، ويتحدث جد ابن العديم ــ وكان أحد رجالات الوفد ــ واصفا ما حدث في ماردين فيقول : « لما وصلنا الى ماردين ، ودخلنا على حسام الدين تمرتاش وذكرنا له ما حل بأهل حلب ، وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر ، وأنه يتوجه إليها ، ويرحل الفرنج عنها ، وأنزلنا بمكان في ماردين ، وجعلنا نطالبه بما وعد وهو يدافعنا من يوم الى يوم ، وكان آخر كلامه أن قال : خلوهم إذا اخذوا حلب ، عدت وأخذتها ، فقلنا في أنفسنا : ما هذه الا فرصة ، وقلنا له : لا تفعل ، ولا تسلم المسلمين الى عدو الدين ، فقال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي أبو غانم [جد ابن العديم] : وايش هم حتى لا تقدر عليهم ونحن أهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم » .

قال القاضي أبو الفضل ــ عم ابن العديم وراوي الخبر له ــ : فكتبت كتاباً من حلب الى والدي أبو غانم أخبره بما حل بأهل حلب من الضر ، وأنه قد آل الأمر بهم الى أكل القطاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش ، وشق عليه ، وغضب وقال : انظروا الى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة ، قد بلغ بهم الأمر الى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ، ويغرونني ويقولون : إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم .

قال القاضي أبو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا ، فوكل بنا من يحفظنا خوفاً أن ننفصل عنه الى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب الى الموصل ، وأن نمضي الى البُرسقي ـ صاحب الموصل ـ ونستصرخ به ، ونستنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريراً عظيماً إذا فتح أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتاً ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ، ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال : وكان الزمان شتاء والثلج كثير على الأرض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم إلا غلامي ياقوت ، وأخبر غلمان رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لأصحابي : قوموا أنتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكراً لا يأخذني نوم حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة ، وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت وركبت لا أعرف الطريق ، ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من أول الليل ، وسرت من آخره ، وكانوا قد ضلوا الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح ، وركبنا وحثثنا دوابنا ، وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل » .

وفي الموصل قابل هذا الوفد آق سنقر البرسقي حاكم المدينة ، واستطاع إثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب ، وعندما أشرفت عساكره على البلدة الباسلة ، رحلت قوات الصليبيين منسحبة ، وهكذا نجت حلب وبنجاتها نجت بلاد الشام مع المشرق العربي والاسلامي ، وقد علق في عصرنا هذا المؤرخ البريطاني الكبير توينبي على هذا الحادث بقوله : « لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينياً » .

بوصول مد الاحتلال الصليبي سنة ٥١٨ هـ / ١٠٢٤ م الى نهايته انتهى عهد الفتح الصليبي وبدأت حرب التحرير والاسترداد ، وانتقل المسلمون من حالة الدفاع الى حال الهجوم وبدأوا يخططون لأعمال التحرير ، وتوقف الصليبيون عن أعمال الهجوم، وبات شاغلهم الرئيسي الاحتفاظ بما احتلوه .

لقد مرت حرب الاسترداد بأربع مراحل ، ارتبطت كل منها باسم مدينة منمدن العرب تحملت عناء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها ، وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العربوالمسلمين من حيث اليقظة والوحدة وشخصيات القادة ، وهذه المراحل المتتالية هي : مرحلة **الموصل** ، مرحلة حلب ، مرحلة دمشق ، مرحلة **القاهرة** .

كانت مدينة الموصل أعظم مدن منطقة الجزيرة Mesopotamio ، وفي التاريخ الاسلامي نجدها في المراحل المبكرة منه دائماً متورطة في مشاكل العراق السياسية وغير السياسية ، وقلما كان لها دورها الفعال في أحداث بلاد الشام، إنما يلاحظ منذ القرن العاشر بداية تحوللاشتراك في أحداث

الشام ، على أنه ظلت هذه المشاركة هامشية حتى أواخر القرن الحادي عشر ، وبالتحديد عندما ازداد تدفق الغُز" على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغز من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وقبل قدوم الغُز" وإقامة السلطنة السلجوقية رست مقاليد التغيير السياسي في بلاد الشام في أيدي رجال القبائل العرب ، وقد انتزع الغُز" هذه المقاليد منهم كما سبق الحديث عن هذا .

وكانت الموصل أول محطة للمهاجرين الغُز" نحو الشام، وسبب هذا تحولا جذرياً في تاريخ الموصل مع إقليم الجزيرة والشام ، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف ، وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءاً من الشام ، وتورطت في مشاكله ، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والأساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام ، وربما على الشام بأسره ، ويمكن أن نرى في تاريخ الدولة العقيلية ، ثم الدولة الأتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا .

لقد أراد الصليبيون احتلال مدينة حلب لسد الثغرة بين الرها وأنطاكية ولعزل الشام عن المشرق بعد ما تم عزله الى حد بعيد عن مصر ، ليسهل بعد ذلك الاطباق عليه واحتلاله بشكل كامل ، لكن مدينة حلب نجت ودخلت في وحدة طوعية شعبية مع الموصل ، وهكذا توحد شمال بلاد الشام مع أعالي بلاد الرافدين تحت قيادة البُرسقي ، ووجهت الآن طاقات المسلمين في الدولة الجديدة ضد الصليبيين وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي الى مرحلة الهجوم الايجابي، لكن لسوء حظ المسلمين أن البرسقي اغتيل من قبل الحشيشية الاسماعيلية بعد عامين من انقاذ حلب ، وبدء حرب التحرير .

ولقد أدى اغتياله الى انتكاسة مروعة ، لكن مؤقتة ، ذلك أن الأمة كانت تعيش بداية عصر لليقظة لذلك اجتازت المحنة وتغلبت عليها ، لقد تآمرت قوى سياسية محترفة على سيادة الموصل ، وانجرفت السلطنة في تيار هذه المؤامرات مع دار الخلافة ، لكن شعب الموصل كان يعرف ما يريد عن إيمان وعزيمة ، وبعد عام من مصرع البُرسقي توجه وفد يمثل أهل الموصل الى بغداد ، وقام هذا الوفد باختيار الضابط زنكي بن آق سنقر قسيم الدولة ، وتعاقدوا معه على تولي مقاليد الأمور في دولة الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبات محددة ، وبعدما تم التعاقد معه أجبر الوفد سلطات بغداد على الموافقة على تعيين زنكي حاكماً جديداً على الموصل واستبعاد سواه ٠

وفي عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين زنكي زمام الأمور بالموصل ، وكان زنكي هذا عسكريا من الطراز النادر ، له من الحزم والشجاعة والبطش ، وحب النظام والتقيد به مع المطامح العالية ما أحله محل الزعامة ، ومكنه من شغل الدور الذي كانت الأمة في مرحلة استفاقتها آنذاك قد أوكلته إليه وعهدت بمسؤولياته الجسام الى اخلاصه وكفاءته ٠

لقد أدرك زنكي حجم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه فقام بها خير قيام ، وأدرك أن عليه ــ حتى يحقق النجاح ــ أن يوحد بأي ثمن وبأية واسطة بين أجزاء الأمة الممزقة سياسياً ، وأن كل شيء جائز وقانوني في سبيل تحقيق الوحدة وإزالة جميع العوائق والفوارق لتطوير حركة اليقظة وتنميتها ونفي الفوضوية عنها والزامها بالجدية والنظام والعمل الجاد البناء ٠

وكانت خطته في العمل ضد العدو تهدف أولا الى ازالة مملكة الرها ، ثم اسقاط أنطاكية ، حتى تسد الثغرة ما بين

أعالي الرافدين وشمال بـلاد الشام ، ومن ثم تغلق المنافذ البرية للصليبيين ، فتتوقف بذلك الهجرة البرية ، ويحال بين الامبراطورية البيزنطية وبـين التدخل وتقـديم المساعدات للصليبيين ، الذين يمكن بنجاح هـذه الخطة وضعهم داخـل نطاق الحصار من الجوانب البرية ٠

وعندما يطالع الباحث سيرة حياة زنكي يجده قد ضرب المثل الأعلى بالجدية والالتزام بالنظام ، وقد وصفه ابن العديم في كتابه « بغية الطلب في تاريخ حلب » بقوله : « كان زنكي ملكا عظيما ، شجاعا جباراً ، كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع ، وينقاد إليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان إذا قيـل له : أما تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه » ووصفه آحـد معاصريه بقوله : « كان أتابك زنـكي بن قسيم الدولة آق سنقر رحمـه الله إذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئا من الزرع ولا يجسر أحد من هيبته يدوس عرقاً من الزرع ، ولا تمشي فرسه فيه ، ولا يقدر أحد من الأجناد يأخذ لفلاح علاقة تبن إلا بثمنها أو بخط من الديوان الى رئيس القرية ، وإن تعدى أحد صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن جندي أنـه تعدى على فـلاح قطع خبزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعـد خرابها ، وأحسن الى أهالي مملكته ، وكان لا يبقي على مفسد ٠٠٠٠٠ ونهـى عن الكلف والمغـارم والسخر والتثقيل على الرعية وأقام الحدود في بلاده » وفرض زنكي على شعب دولته نوعاً من أنواع الجندية الاجبارية، حتى صار معظم جند قواته متطوعة من أبناء الشعب ٠

ما أن مكن زنكي نفسه في الموصل حتى التفت الى جهـاد الصليبيين والعمل على قلعهم من ديار الشام ، وكان زنكي من مواليد مدينة حلب، فيها نشأ وامضى طفولته ، وكان الحلبيون يعرفونـه ويحبونه ، لذلك قامـوا عند قدومـه الى الموصل ، فانتزعوا زمام مدينتهم من أمراء الأسرة الأرتقية التركمانية الذين استولوا عليها إثر اغتيـال البرسقي ، وذهب جماعة منهم الى زنكي فاستدعوه الى حلب ، وهكذا عادت الوحدة بين شمال الشام وأعالي بلاد الرافدين ٠

وسخر زنكي طاقاته ودولته للتحرير،ووقف نفسه عليه، فاسترد من الصليبيين أولا معرة النعمان وكفر طاب، وبارين، والأثارب مع المنطقة الشمالية والغربية لدولة حلب، فاستردت حلب بذلـك شيئا من عافيتها وتوفرت لديها امكانات أعظـم للمساهمة بشكل أوفر في أعمال التحرير ٠

وكان هم زنكي وشغله الشاغل احتلال الرها ، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها ، وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الأمة كلا وأفراداً استطاع زنكي سنة ١١٤٤م احتلال الرها والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيساً في المشرق ،ولقد عم لسقوط الرها صدى بالغ في الشرق والغرب ، وكانت تلك أقسى ضربة حلت بالفرنجة مذ دخلوا الشام ، وأفدح خسارة ألمت بهم ٠

وتابع زنكي نشاطاته لتنفيذ خططه وحدث أنه بعد مضي عامين على سقوط الرها أن قضى نحبـه غيلـة من قبـل أحد غلمانه ، حدث ذلك وهو يحاصر قلعة جعبر ، ووقع ليلا بينما كان زنكي نائماً ، وهرب الغلام الذي اقترف جريمـة قتلـه

وجاء الى تحت قلعة جعبر « فنادى أهل القلعة : شيلوني فقد قتلت السلطان ، فقالوا : اذهب الى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله » ٠

لقد كان لمصرع زنكي أثراً مفجعاً على نفوس المسلمين ، فدعوه « بالشهيد » ورغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي ، فان زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم ، لكن رغم هذا كله لم يوقف موت زنكي مسيرة التحرير ، ولم يؤثر كثيراً على أوضاع الأمة ، ذلك أن الأمم الحية لا تتأثر كثيراً بفقدان القادة ، ولا تتعطل مسيرتها بمصرعهم لأنها تخلقهم الواحد تلو الآخر ٠

لقد طوى حادث اغتيال زنكي مرحلة حرب الاسترداد ، الأولى ، وهكذا انتهت مرحلة الموصل لتبدأ مرحلة حلب وهي المرحلة الثانية للتحرير ، فقد تسلم نور الدين محمود بن زنكي القيادة بعد سقوط أبيه ، وكان نور الدين ـ الذي اتخذ من حلب مقراً له ـ مثله مثل أبيه في الشجاعة والحزم والاخلاص والطموح ، إنما تميز عن أبيه بتقواه وزهده ، وسلامة نيته ، فقد كان يعتقد بأن الله تعالى قد أوكل إليه مهمة اقتلاع الفرنجة من ديار المسلمين ، وتوحيد هذه الديار وأهلها تحت راية واحدة ولهدف جهادي واحد ٠

وكانت أولى الأعمال التي قام بها نور الدين محمود استعادة الرها من الصليبيين الذين استغلوا حادث اغتيال زنكي والفوضى التي رافقته ، فاستولوا عليها ثانية ٠ وبعد هذا بذل جهد ما أوتيه من قوة وطاقات في سبيل اثارة الأمة ، وبعث روح الجهاد والتضحية بين جميع أفرادها في كافة مناطق الوطن

العربي ، ويعتبر نور الدين من أعظم الذين آسهموا في ايجاد جيل مسلم جـديد له روح جـديدة ، تضحي في سـبيل الجهاد والتحرير ، وتخترع وتبدع كل ما يحتاجه الجهاد والتحرير ، وهي بنفس الوقت روح مثقفـة متحضرة تحب حياة الوحـدة والتعاون والتكاتف ، وتكره الفرقة وتمجهـا ، هـذه الروح الجـديدة التـي تجسدت في معظـم أفـراد الأمـة وفي شخص نور الدين ، فكان لها مثلا أعلى ، هي التي مكنت من عدد من الانجازات العسكريـة وهي التي مكنت نور الدين في سنـة ١١٥٤م من الذهاب الى دمشق بناء على دعوة أهلها ، فوحد لأول مرة منذ قرون بين شمال الشام وجنوبه ، وشملت هذه الوحدة أجزاء من الجزيرة، وهي أيضاً التي سببت بناء العديد من الرباطات والمدارس والجامعات والمشافي ، ورعت الثقافـة وشجعت المثقفين ، فنور الدين هو الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق جاء في ثمانين مجلدة كبيرة ، وهـذا أمر لم يعهد له مثيل في سير الأمم وتواريخها .

وبتحول نـور الدين من حلب الى دمشق انتهت المرحـلة الثانيـة ، وتحولت مدينـة دمشق عن الموقف السلبي تجـاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد وبشكل حاسم، فمن دمشق خاض نور الدين عدة معارك ضد الصليبيين وكانت جميع المعـارك التي وقعت بـين المسلمين والصليبيين حتى هذا التاريخ غير فاصلة ، فبلاد الشام هي بـلاد تساعد بنيتها الجغرافية على قيام كثير من القلاع والحصون ، وكانت معظم المدن والبلدان فيها ذات أسوار للدفاع ، لذا كانت كلما حدثت معركة بين قوة عربية وقوة صليبية ، كانت هذه المعركة غالباً ما تحدث قرب أسوار إحدى القلاع أو الحصون ، ولذلك

كانت تستغرق وقتا طويلا ، وتستهلك جهداً عظيماً دونما فائدة تذكر ، وإذا ما حدث ووقع اشتباك في أحد السهول فان المهزوم غالباً ما كان ينسحب الى واحد من مواقعه المحصنة القريبة ، فيتخذ موقف الدفاع لذلك طال أمد الحروب الصليبية ، واحتاجت الى تكاليف باهظة ، وبات على المسلمين وقادتهم تأمين الموارد الكافية من الرجال والمؤن ، والسلاح والمال لنفقات هذه الحروب ، وبنفس الوقت العمل من أجل خلق ظروف وحالات مواتية لقيام معركة فاصلة مع العدو ، تحطم فيها قواه العسكرية ، ذلك أن الصليبيين ظلوا في المشرق عبارة عن مؤسسة عسكرية محتلة ، ولم تقم بينهم وبين المسلمين علاقات حياة اجتماعية وتعايش ، وما جاء في بعض المصادر عن بعض العلاقات لا يمكن أخذه مأخذ القانون الشامل • لقد عاش الصليبيون في المشرق غرباء ، وملكوا القدرة على البقاء طالما ملكوا القدرة العسكرية ، لكن عندما فقدوا ذلك بضربة حاسمة صار وجودهم مؤقتاً •

وبعدما وحد نور الدين الشام والجزيرة نظر آمامه فرأى مصر بطاقاتها الهائلة ومواردها الكبيرة الجبارة ، وكان الحكم في مصر على غاية من الضعف والتمزق والاضطراب ، وتوجه نور الدين بأنظاره نحو مصر كي ينقذها من فوضاها ، وكي يدخل اليها الروح الجديدة التي حلت بالشام ، وحتى تستخدم موارد مصر ، وتزج طاقاتها في المعركة بدلا من التبعثر والهدر والضياع •

وكان الصليبيون قد وصلوا الى قناعات مفادها أنه بات من المحال بالنسبة لهم التوسع في بلاد الشام ، وأنه ليس أمامهم في مستقبل قريب غير مصر أو البحر ، لذلك أرادوا احتلال

مصر ، ورغبوا في الاستفادة منها ومن مواردها ، لكي يحولوا بين المسلمين وبين تطويقهم ، والعمل في سبيل القضاء عليهم واقتلاعهم ، لهذا أعدوا العدة ، ورسموا الخطط ، وجردوا عدة حملات ضد مصر ، لكن نور الدين كان لهم ولأعوانهم من المتحكمين بمصر بالمرصاد ، فسارع الى التدخل ، وبفضل شجاعة قوات نور الدين ، وتجاوب شعب مصر معها أخفقت جميع جهود الصليبين ، وتمكن نور الدين في سنة ١١٦٧ م من توحيد مصر مع بلاد الشام والجزيرة ، وفي سنة ١١٧١ م تم إلغاء الخلافة الفاطمية ، وقامت في مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة ، وبدأت مصر تستعد للاسهام في أعمال التحرير ، وطوقت الآن ممتلكات الصليبيين ، وأعد نور الدين قواته من أجل معركة فاصلة ، وكان موقنا من أن النصر سيكون حليفه ، وأنه لن يكون بعد فترة للصليبيين وجود في الشام ، وعلى هذا الأساس أمر نور الدين بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة الأولى في المسجد الأقصى بعد تحريره(١) .

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب واليا لنور الدين على مصر ، وقبل أن يتوجه نور الدين على رأس قواته نحو فلسطين أصدر أوامره الى صلاح الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقاء معه على أسوار الكرك ، ولكن ــ ولكل عظيم سقطة ــ غلبت أنانية صلاح الدين وشهوته للسلطة على نفسه ــ وذلك بتحريض جهازه الذي أحاط به له ، وتخويفه من نور الدين ــ فتلكأ صلاح الدين ولم ينفذ أوامر نور الدين متعللا بأوهى الأسباب ، وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الأمة سنين طويلة أخرى من الدم والعذاب .

---

(١) لقد أحرق هذا المنبر منذ سنوات عدة اثر احراق المسجد الاقصى بعد حرب ١٩٦٧ .

وتوفي نور الدين بشكل مفاجىء عام ١١٧٤م ، وقام بعده صلاح الدين ، فاستطاع أن يرث دولته ، وعندما أنجز صلاح الدين إقامة دولته الموحدة الممتدة من ليبيا الى الموصل ، والشاملة لليمن والحجاز أيضاً ، قاد قواته المحترفة وجموع متطوعة الشعب سنة ١١٨٧م ، وتوجه من دمشق نحو فلسطين، فحطمت القوات العربية على سهل حطين القوة العسكرية لمؤسسة الاحتلال الصليبي ، وبعد حطين حرر صلاح الدين القدس ، وجلب الى المسجد الأقصى المنبر الذي صنعه نور الدين ، فخطب عليه أولى خطب الجمعة بعد التحرير ٠

وبعد نصر حطين بات أمر وجود الصليبيين في المشرق قضية زمن لا أكثر، وإن من يستعرض أخبار الفترة التاريخية للمرحلة الثالثة، مرحلة دمشق بقيادة نور الدين ثم صلاح الدين يجد أمة تتحرك كجسد واحد بلا تناقضات كبيرة ولا أمراض مستعصية ، وكان بودي أن أستعرض هنا بعض النماذج الموضحة الشاهدة ، لكن ذلك يحتاج الى مكان أرحب ، في مشروع الدراسة الذي بينت خطوطه وشرحت خطته، وأملي كبير بأن أتمكن من التنفيذ بعون الله ومشيئته ٠

عاش صلاح الدين عدة سنوات بعد حطين وتحرير القدس واجه خلالها مشاكل صعبة للغاية حتى على الصعيد العسكري ، إنما ذلك كان عديم التأثير ، فلقد حكم نصر حطين على الوجود الصليبي في المشرق بالزوال، وما كان لقوة أن تغير ذلك الحكم، كل ما حدث محاولات لتأخير حركة التنفيذ لكن بشكل يائس ٠

ولقد ترعرعت الروح الجديدة التي حملت من الشام الى مصر ، فجعلت بعد فترة وجيزة من الزمن من القاهرة عاصمة

لديار العرب ، ومركزا لقواهم وثقافتهم وحضارتهم ، وبعد وفاة صلاح الدين صارت القاهرة مقر السلطنة الأيوبية ، ومن القاهرة قاد خلفـاء صلاح الدين من الأيوبيين أولا ثـم من المماليك ،قادوا أمة العرب نحو تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام، ونحو تسبيب الاخفاق لجميع محاولات أوربة في احتلال أي جزء من بلاد العرب ، كما أن القاهرة حمت الوطن العربي في مشرقه ومغربه ، وصانته عندما تعرض هذا الوطن للغزو المغولي ، فهزمت المغول في معركة عـين جالوت وأجبرتهم على الجلاء عن أرض الشام ٠

وفي دمشـق وحلب والموصل والقاهرة طـور العرب زمن الحـروب الصليبية فنونهـم الحربيـة وصناعات الأسلحـة ، واخترعوا الكثير من الأسلحة الجديدة ، وتحفل المكتبة العربية بالكثير من المؤلفات عن السلاح وفن الحرب كلها تعود الى هذه الفترة ٠

وبعدما طـرد الصليبيون من المشرق ، وزال خطر المغول بدأت قوة العرب وحضارتهم بالتدهور السريع والجمود ،بينما بعثت في أوربة التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لها القوة وقادتها من جديد نحو ديار العروبة والاسلام ٠

ويتساءل الباحث عـن أسباب انحطاط العـرب مع أنهم حازوا النصر ، وبعث أوربة مع أنها كانت المهزومة ؟ ولعل من أسباب ذلك أن أوربة الاقطاعية الشديدة التمسك بالكاثوليكية حـين خسرت الحرب كانت تلك الخسارة ضربـة مميتة للنظام الاقطاعي والكنيسة معا في أوربة ، وفي المقابل نجد أن الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين

في الشرق المسلم من تسلم زمام الأمور ، وساعدت على التعصب الديني وخلقت الى جانب الاقطاع العسكري اقطاعاً دينيا كان جديداً كل الجدة في تاريخ الاسلام، ومع الأيام زادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية ، وترسخت قواعد أنظمة للكهنوت الاقطاعي في الاسلام ، وعندما توقفت الحرب أصبح الجند عالة على الأمة ، ثم إن الشعور بالنصر والسلم والأمان بعد عهود طويلة من الحروب والدمار، مع زوال عوامل التحدي دفع العرب نحو الاخلاد الى الراحة والسكينة والى قبول نوع جديد من التمزق السياسي ، وحيث أن الأمة قد وجهت أيام الحروب معظم طاقاتها ، ورصدت كافة امكاناتها المادية والعقلية للمعركة ، فقد عطل هذا مع الأيام الكثير من جوانب الحياة الثقافية ، والحضارية ، وولد مع الاقطاع الديني والعسكري التعصب والتزمت والاحتكار .

إن اهمال الحضارة والثقافة والتعصب الأعمى كان وما زال آفة العرب الكبرى ، ومعلوم أن العرب لم يتمكنوا قط من صنع حضارة وثقافة وهم ممزقون ، لكنهم كانوا كلما اتحدوا وتسامحوا بعقل ومنطق صنعوا كل شيء ، ففي الوحدة الهادفة الواعية كمن ــ و لايزال يكمن ــ سر نهوض العرب وقوة المسلمين .

★ ★ ★

لقد أرخ لأحداث الحروب الصليبية عدد كبير من المؤرخين بعدة لغات تتصدرها العربية واللاتينية والاغريقية والسريانية ، وتأتي المصادر العربية واللاتينية في المرتبة الأولى ، ويلاحظ أن غالبية المصادر بغير العربية قد تم نشرها

والاعتماد عليها من قبل الباحثين ، لكن جزءاً ضئيلا من المصادر العربية هو الذي نشر حتى الآن وتم استخدامه من قبل الباحثين من غير العرب ، وما تزال خزائن المخطوطات العربية تحوي عدداً كبيراً من كتب التاريخ عن الحروب الصليبية تنتظر من يبحث عنها ويعمل على احيائها ، ومما لا شك فيه أن بعض المدونات المبكرة التي صنفت في حلب ودمشق من قبل مؤرخين كبار مثل ابن العديم ــ عم الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد صاحب بغية الطلب في تاريخ حلب ــ وحمدان بن عبد الرحيم الأثاربي وابن أبي طي ، وأهل المعرة ، وعدة أفراد من الأسرة المنقذية وسواهم ، هي الآن بحكم المفقود إلا أنه من حسن الحظ أن ابن عساكر وابن العديم والمقريزي قد حفظوا لنا تراث هؤلاء المؤرخين وتراث سواهم في تواريخهم الكبيرة التي دونت لدمشق ، وحلب ، ومصر [تاريخ دمشق ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، المقفى الكبير في أخبار مصر] ٠

لقد أوليت اهتمامي لتاريخ الحروب الصليبية منذ سنين عديدة ، وجمعت كمية كبيرة من المصادر بغير العربية ، وتقصيت في البحث عن المزيد من المصادر العربية ، ولقد حزت حتى الآن على ما يثلج الصدر ، ويدفع على المزيد من التنقيب ، وشرعت في وضع خطط لاحياء بعض النصوص وللتأليف في تاريخ الحروب الصليبية ، لكن طاقتي الفردية المحدودة وتوزع اهتماماتي بجوانب التاريخ الاسلامي ومراحله مع أعمال التدريس وواجباته كلها أعجزتني حتى الآن عن تحقيق ما أصبو إليه ، وهو ما أشعر بحاجة القارىء العربي على مختلف المستويات إليه ، ولقد جربت مبدأ التعامل بالعمل الجماعي ، ولسوء الحظ أن هذا المبدأ الرائع من الصعب تطبيقه الآن ٠

وعلى مبدأ مالا يدرك كله يقنـع بأقله ـ وذلك أضعف الايمان ـ وتحت الحاح عدد من الأصدقاء أقدمت على احياء أحـد النصوص العربية التـي في مكتبتي عن تاريخ الحروب الصليبية ، وهـو نص صغير الحجم ، كتب في فترة متـأخرة ، وكنت قـد تعرفت إليه للمرة الأولى عـام ١٩٦٨ حين لازمت قاعة البحث في المكتبة الوطنية في باريس ٠

اسم هـذا النص : « كتاب الاعـلام والتبيين في خـروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين » ٠

ويتألف مخطوط هذا الكتاب من إحدى وثلاثين ورقة ، أُفردت أولاهن للعنوان والباقي لمتن الكتاب ، وحوت كل ورقة من المخطوط ثلاثة عشر سطراً ، في كل سطر منها وسطياً ما بين ١٠ الى ١٢ كلمة ٠

وقد جاء على الورقة الأولى من هذا المخطوط التعليقات التالية:

بخط مؤلفه رحمه الله ٠

طالعه أحوج خلق الله اليه الحاج محمد بن محمود أصلح الله حاله ٠

قال ﷺ : من لم يذكرني في دعاؤه (كذا) فلم يقبل دعائه ٠ الخط باقي والعبد فاني ، والعبد خاطي ، والرب غافر ٠

قال ﷺ : إنما يرحم الله من عباده الرحمـاء ، ارحموا مـن في الارض يرحمكم من في السماء ٠

من كلام ابن زين آمين :

من لم يكن يوما لقولك يفهم ... الـرأي أنـك معـه لا تتـكلم
كـم كلمة ردت على ما قالها ... إن لـم يـكن أهـلا لهـا المتكلم
من باع في سوق الكناسة جوهراً ... وأراد ربحـا لا يغـوي ويغنـم
(كذا وهو مكسور الوزن)

ومن كلام الاستاذ ماميه ابن الرومي من قصيدة :
قصدت طواف البيت يوماً وبالصد
ـفى مررت بغزلان وهن رواتع

نسخة المخطوط هذه - في حدود معرفتي - فريدة في العالم ، وهي بخط المؤلف « أحمد بن علي الحريري » • كتبها بخط نسخي جميل في « أواخر شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة » •

وهنا لا بد من سؤال بديهي : من هو أحمد بن علي الحريري هذا ؟ هو لا شك من رجال القرن العاشر للهجرة ، ونستدل على ذلك من تاريخ نسخ الكتاب ، إنما ماذا فوق هذا ؟ لا ندري فلقد عدت الى المعروف المتوفر من كتب التراجم وسواها العائدة للقرن العاشر فلم أقف للمصنف على ذكر •

ومن خلال العمل بالكتاب قدرت بأن مصنفه كان من أهل بلاد الشام ، ومعروف أن هذه البلاد تحوي أعداداً كبيرة من الأسر التي تحمل اسم « الحريري » خاصة في الأجزاء الجنوبية منها ، وقدرت في بعض الأوقات أن يكون المصنف معروفاً لدى واحد من « آل » الحريري ، وقمت بالسؤال هنا وهناك ، لكن دون نتيجة، وهكذا لم أجد ما أبتغيه، نعم لقد مرَّ بي ذكر اسم « أحمد بن علي الحريري » تبين لي أنه من رجال القرن التالي ، وهو من كبار شخصيات نحلة صوفية عرفت باسم « الخلوتية » فهل بين الرجلين نسب ما بأن يكون المصنف جداً للعلم الصوفي هذا ، إن هذا مالا أستطيع الحديث عنه •

ولسوء الحظ أن غلاف المخطوط لا يحوي اشارات مفيدة تساعد في التعرف الى المصنف، ثم ليس في متن الكتاب ما يمكّن من معرفة دوافع التصنيف ، ومع هذا يمكن أن نرجع هذه الدوافع الى أنها نبعت من عصر المؤلف وأحداثه ، أي بسبب ازدياد الضغط الأوربي الصليبي على بلدان المشرق الاسلامي

مع حركــة الاستعمار والاستكشاف البحري وخاصة للبرتغال والاسبان ٠

هذا ولا يشير المصنف الى المصادر التي اعتمدها واستقى منها معلوماته التي أودعها في كتابه ، ويبدو أنه كان تحت تصرفه مجموعة من الكتب الأساسيــة لتاريــخ الحــروب الصليبيــة والعصرين الأيوبي والمملوكي ، مثــل كتاب الروضتين لأبي شامة ، وكتــاب مرآة الزمان لسبط ابــن الجوزي ، ومفرج الكروب لابن واصل الحموي ، والسلوك للمقريزي ، وسوى ذلك ٠٠٠٠٠٠

إن هذا الكتاب لا يحوي أخبار تاريخ الحروب الصليبية بشكل مفصل ، بل كل ما هنالك مجرد اشارات الى أهم الحوادث ــ بنظر المؤلف ــ بشكل متسلسل زمنيا ، مما يوحى بأن المصدر الذي اعتمده المصنف بشكل أساسي كان مرتباً حسب طريقة الحوليات ، ونوعية الاختيار لدى المصنف فيها دليل على تذوقه التاريخي ، أقول تذوقه لكن ليس احترافه ، فهو كثيراً ما يورد ذكر عدد من الحوادث التي وقعت في سنين متتالية تحت عنوان تاريخ سنة متقدمة ، ثم هو كثيراً ما يخطىء بتواريخه ، ويبدو أنــه كــان ذا ذوق آدبي بدليــل ايراده لبعض من المقطوعات الشعرية ، وفي هذا ما يشير الى أثر ثقافي لديه ٠

على أنه رغم هذا كله ، فان المصنف كان على العموم ابن عصره ، تشيع في كتابه الأخطاء النحوية،ويكتب بعربية شائعة بحيث يقول مثلا : « ولــم يستطيع ، خمس ملوك ، ســارت الفرنج ، فانهزموا المسلمين ، وحملوا المصريين » وهكذا ، ثم إن غالبية الأسماء غير العربية الأصل نقلها بصورة مصحفة ،

بحيث نجد عنده : « صيخيل بدلا من صنجيل ، أزباط بدلا من أرناط » وهكذا ، كما لحق التصحيف أيضاً العديد من أسماء الأماكن والبقاع العربية، فاوتاج مثلا بدلا من ارتاح، وغير ذلك كثير .

وقد واجهتني هذه الأخطاء ، بمشكلة أثناء ضبط النص وتحقيقه ، فلو أن نسخة الكتاب كانت بغير خط المؤلف ، لأحسنت الظن بالمؤلف ، وذهبت الى الافتراض الى أن الأخطاء مصدرها النساخ ، وعلى هذا الأساس كنت أقدمت على تقويمها مباشرة ، إنما والنسخة بخط المؤلف فالقضية ذات أبعاد مختلفة ....

والطريقة المتبعة في مثل هذه الحالة تقوم على ترك النص على حاله والاشارة للأخطاء بالحواشي،وعندما فكرت بالاقدام على ذلك وضح لدي أن حواشي الكتاب ستغدو أكبر من المتن خاصة بعد اضافة الحواشي التي تتعلق بموضوع الكتاب فهناك حاجة ماسة إليها لتبيان مكان موقع ما أو لشرح أو تقويم خبر أو عبارة من العبارات .

ورأيت أفضل مخرج لهذا الأمر هو التنبيه على كل خطأ لغوي أو نحوي أو تصحيف مباشرة بالمتن وذلك بأن أضع بين حاصرتين : [ ] الكلام المصحح ومثالا على هذا ، قوله : « وحملوا المصريين [وحمل المصريون] ، صيخيل [صنجيل] ، أوتاج [أرتاح] وهكذا مما يشاهد أثناء مراجعة الكتاب وقراءته .

لعل في اعتماد هذا المخرج فائدة مضاعفة ، فيها انقاص كمية الحواشي ، وفيها تمكين القارىء من معرفة الصواب

مباشرة وهو يطالع المتن دون أن يحتاج الى توقف عن النظر الى المتن ونقل نظره أسفلا الى الحاشية ، ومن المعروف أن غالبية القراء تقرأ متون الكتب ولا تعود الى الحواشي إلا وقت الحاجة الماسة ، وغالباً ما ينحصر هذا بفئة معينة من القراء هي فئة ذوي الاختصاص •

أملي كبير أن يكون قد حالفني الحظ في عملي هذا ، والله الموفق وله الحمد ، ومنه أطلب مزيداً من العون والتوفيق والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان وسلم تسليماً كثيراً •

دمشق ٢٤/٢/١٩٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

الله ولي الهداية

الحمد لله الذي شرف ملة الاسلام على جميع الأمم ، وأيدهم وأمدهم بالتأييد والنعم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أنجو[1] بها الخلاص من العدم ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده المرسل الى كافة العرب والعجم ، ونبيه المنصور بالرعب مسيرة شهر ، حتى أباد أهل الشرك ، وانتقم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المخصوصين بفضيلتي السيف والقلم ، صلاة دائمة ما شهر سيف ، وأنار نور وارتفع علم ، وسلم تسليما ٠

أما بعد فقد حداني أن أصنف مختصراً لطيفاً في خروج الكفرة الملاعين على بلاد المسلمين ، واستيلائهم على السواحل والجبال ، بعد زوال دولة الأمويين وضعف الخلفاء العباسيين ، وجور الملوك على الرعية ، وقلة الأعباء بالدين ، وسميته : الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين ٠ وأسأل من الله تعالى الاعانة لي ولكافة [٢ ـ و] اخواني الموحدين ٠

أقول : قال أصحاب التاريخ[2] : وفي سنة تسعين

---

(١) كذا والأقوم : أرجو ٠

(٢) كذا دون أن يذكر أيا منهم ٠

وأربعمائة ، قدمت الفرنج الملاعين الى بلاد الشام ، وكان ظهورهم من بحر قسطنطينية في جمع عظيم ، فعظم الخطب ، وكثر الهم ، وكان ذلك في أيام المستعلي[1] بالله بن الظاهر لاعزاز دين الله ، خليفة مصر الفاطمي ، فجمع سلطان الروم الفرنج ، ووقعت بينهم وقعة عظيمة ، فكسروه [فكسره] ـ واسمه سليمان شاه[2] ـ واستخدم التركمان ، والتقى الفرنج ، وقتلوا غالب عساكره ٠

ثم إن الفرنج توجهوا الى أنطاكية ، وحاصروها ، وقتلوا كثيراً من الناس ، وسبوا النساء والصبيان ، ودخلوا الى المعرة، وملكوها وقتلوا غالب أهلها ، ووصلوا الى البارة ، وجبل السماق ، وملكوا أفامية ، وكفر طاب[3] ، ونواحي تلك البلاد ، وذلك أول خروجهم ٠

ثم إن الفرنج شددوا في الحصار على أنطاكية ، وصاحبها، يومئذ باغي سنان [يغي[4] سِغان] ثم إن باغي سنان [يغي

---

(١) جعل خليفة بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، وأدى تسلمه لعرش القاهرة الى انشطار الدعوة الاسماعيلية الى شطرين ، وقد توفي سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ٠

(٢) كذا والصحيح السلطان قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم ـ ٤٨٥ ـ ٥٠٠ هـ / ١٠٩٢ ـ ١١٠٧ م ، كانت مدينة نيقية عاصمته عند بداية الحروب الصليبية ، وقد حاصرها الصليبيون وكان غائباً عنها ، فتولت زوجته الدفاع عنها الى أن سلمتها الى سلطات الامبراطورية البيزنطية، مما سبب شقاقاً حاداً بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطي ٠ وبعد سقوط نيقية علم قلج أرسلان بالأمر ، فجمع جموعاً من التركمان وحاول التصدي لجموع الصليبيين واشتبك معهم في أكثر من معركة حتى أخفق في ايقاف زحفهم ، فتابعوا زحفهم أنطاكية ٠

(٣) يبدو أن المصنف اعتمد هنا مصدراً هو غيره فيما يلي ، لذلك أجمل خبر عدة حوادث ،ثم نراه يعود للحديث عن حصار أنطاكية حتى سقوطها ٠

(٤) تعني هذه العبارة ـ الصاعقة ـ وكان السلطان السلجوقي ملكشاه قد خلفه وراءه سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م حاكماً على انطاكية ٠ انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٢٠٥ ٠

سِغان] أخرج النصارى [٢ـظ] المقيمين بأنطاكية، وطردهم، ونهب دورهم ، ودام الحصار على أنطاكية تسعة أشهر وهلك أكثر الفرنج عليها من القتل والموت والجوع، وظهر من شجاعة صاحبها مالم يرا [ير] من مثله ٠

ثم إن الفرنج عاملوا مقدماً على برج من أبراجها، وبذلوا له مالا كثيراً ، فعاملهم على المسلمين ، وطلعوا [وطلع] الفرنج من البرج[1] ، وضربوا البوق وقت السحر ، فهب باغي سنان [يغي سِغان] في ثلاثين فارساً ، وترك ماله وأهله وحريمه ٠

ثم ندم باغي سنان [يغي سِغان] على ذلك ، وتأسف إذ لم يقاتل عن حريمه ، حتى قتل ، وخارت قوته ، ولم يستطيع [يستطع] أن يثبت على الفرس ، فتركه أصحابه ، ونجوا ، فجاء نصراني من الأرمن فقتله ، واحتز رأسه ، وجاء بالرأس الى الفرنـج ٠

ثم إن الفرنج أخذوا المعرة بالسيف ، وقتلوا بهـا مائة ألف ، فلما بلغ صاحب الموصل ذلك أخذته الغيرة والحمية ، وكان اسمه كربوقا ، وأقبـل بعسكر الموصـل ، ونزل بمرج دابق ، واجتمع إليه عساكر الشام : تركها وعربهـا ، ففزع الفرنج من ذلك [٣ ـ و] فزعاً شديداً ، وكانوا في غلاء عظيم، فنازلهم المسـلمين [المسـلمون] فتحصنوا بأنطاكيـة ، ودام الحصار عليهم ثلاثة عشر يوماً ، وهم في جوع عظيم ، فبذلوا أنطاكية بالأمان ، فلم يعطيهم كربوقا الأمان ٠

وكانت ملوك الفـرنج خمس [خمسة] ملوك ، وهـم :

---

(١) قيل بأنه كان من أصل أرمني ٠ انظر من أجل حصار أنطاكية ومصيرها مع مصير حاكمها وحاميتها كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٢٣٧ ـ ٢٣٩ ٠

بردويل ، وصيخيل [صنجيل] وكندفري، والقمص ، وتيمنت [بيمنت](١) ، ومعهم راهب عتيق كبير السن ، يعتقدون فيه ، فطمر الراهب في الأرض حربة ، ثم قال: إن في هذه البقعة حربة عيسى عليه السلام، فان وجدتموها نصرتم، فحفروا فوجدوها ففرحوا [ففرح] الفرنج ، وخرجوا ٠

وعملوا المسلمين [وعمل المسلمون] عملة قبيحة ، وهو أنهم اختلفوا على كربوقا ، وقاتلوه ، واشتغلوا عن الفرنج بقتاله ، فمالت عليهم الفرنج فهزمتهم ، وثبتت جماعة من المسلمين ، فقتلوا بأجمعهم(٢) ، ثم سارت [سار] الفرنج، فحاصروا عِرْقَة(٣) وملكوها ، ثم نزلوا على حمص ، وراموا حصارها ، فصالحهم صاحبها ٠

وفي سنة اثنى [اثنتين] وتسعين وأربعمائة [٣ ـ ظ] تجمعت [تجمع] الفرنج ومقدمهم كندفرى ، وساروا الى بيت

---

(١) هم : ١ ـ I Baldwin (of Boulogne) وكان أخا لـ Godfrey وقد كان أول حكام الرها الصليبيين (١٠٩٨ ـ ١١٠٠ م) ثم صار ملكا للقدس من سنة (١١٠٠ ـ ١١١٨ م) ٠

٢ ـ Raymond of st. Gilles كونت تولوز ٠

٣ ـ Godfrey of Bouillon شقيق بلدوين الأول ، عين بعد احتلال القدس حاميا للقبر المقدس أو بالحري ملكا للملكة الصليبية التي أسست في القدس ٠

٤ ـ Adhemor of monteil أسقف Puy وناب عن البابا أوربان الثاني في مرافقة الحملة الصليبية الأولى وأشرف على أمورها ٠

٥ ـ I Bohemond (of Taranto) ابن Guisca d Robert وقدصار أول أمراء الصليبيين لمملكتهم التي أسسوها في أنطاكية بعداحتلالهم لها ٠

(٢) انظر معالجة ذلك في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٢٣٨ ـ ٢٤٢ ٠

(٣) الى الشرق من طرابلس ، كان على جبلها قلعة ، لهذا عدت خطا دفاعيا أوليا لصالح طرابلس ـ معجم البلدان ٠

المقدس وملكوه يـوم الجمعة ثاني عشرين شعبان سـنة اثنى [اثنتين] وتسعين وأربعمائة ·

وكان مسـير الفرنج من أنطاكية ، ومقدمهم كندفري في ألف ألف مقاتل ما بين فارس وراجل، وفعلة، وأرباب مناجنيق [مناجيق] وعرادات ، ونازلوا بيت المقدس ، وعملوا برجين طويلين على السور : أحدهما ببـاب صهيون ، والآخر ببـاب العمود ، وباب اسد[1] ، وهو برج الزاوية ، ومنه فتحها صلاح الدين ، فأحرق المسلمين [المسلمون] البرج الذي عملوه بباب صهيون ، وقتلوا من فيه وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور ، وحكموا به على البلد ، فانهزموا المسلمين [فانهزم المسلمون] ونزلوا البـلد ، وهـرب المسلمين [المسلمون] الى الأقصى والصخرة فاحتموا بهما ، فهجموا عليهم ، فحكي أنهم قتلوا من المسلمين في الحرم مائة ألف وسبوا مثلهـم ، وقتلوا الشيوخ والعجائز ، وسبوا النساء والصبيان ، وأخذوا قناديل [٤ ـ و] الحـرم ، وكان بعض القناديل منهم [منها] وزنـه ثلاثة آلاف مثقـال ذهب بالوزن الشامي ، وأخذوا تنـوراً من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي ، وأخذوا من الأموال مالا يحصى ·

ولما بلغ خليفة مصر ذلك ، جهز وزيره الأفضل ابن أمير الجيوش[2] ، فخرج من مصر في عشرين ألف ، وجدّ في السير ،

---

(١) كذا بالأصل ، ويبدو أن عبارة « باب اسد » زيادة لا محل لها ·

(٢) يريد به بدر الجمالي أول من تحكم بخلفاء الفاطميين ، كان من أصل أرمني ، استولى على مقاليد الأمور في القاهرة أيام المستنصر ، واحتكر لنفسه إمارة الجيش مع الوزارة وقيادة الدعوة الاسماعيلية، وبعدوفاته خلفه ابنه الأفضل ـ انظر ترجمة بدر في ملاحق كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٢٩٨ ـ ٣٠٥ ·

فوصل ثاني يـوم فتحه ، ولـم يعلم ، فقصده الفرنج ، فولى هارباً الى عسقلان[1] ، فتبعوه [فتبعه] الفرنج ، وقتلوا من أصحابه خلق كثير [خـلقاً كثيراً] ، وأحرق الفرنج ما حول عسقلان ، وقطعوا أشجارها ، وعادوا الى القدس ، وهرب من دمشق خلقاً كثيراً [خلق كثير] الى العراق ٠

وقيـل إن الفرنج لما ملكوا القدس ، جمعـوا اليهود الى كنيستهم ، وأحرقوها عليهم ٠ وكان ممن قتل بالقدس : مكي ابن عبد السلام[2] الموصلي [الرميلي] وكان عالما حافظا ٠

ثـم تجهزت عساكر مصـر ، والتقت الفرنج على عسقلان بظاهرها ، فقتل مقـدم عسكر المصريين ، وحمـلوا المصريين [وحمل المصريون] فحطموا الفرنج [٤ ـ ظ] وقتلوا منهم على ما قيل مائة ألف، ثم سار كندفري صاحب القدس ، فحاصر عكا ، فأصابه سهم فقتلـه لعنـه الله ، فأسرع أخوه بردويل ، وتولى مـكانه ، وعـاد الى القدس ، فلمـا علم بذلك صاحب دمشق السلطان دُقاق بن تُتُش ، فنهض هو وجناح الدولة ، صاحب حمص[3]،وجمعوا العساكر والتقوا بالفرنج،فكسروا الفرنج ، واحتموا بالقدس ٠

---

(١) ما تزال تحمل هذا الاسم على ساحل فلسطين قريبا من غزة هي الآن في الأراضي المحتلة ٠

(٢) هو مكي بن عبد السلام بن الحسـين بن القاسم الأنصاري ، مؤرخ من الحفاظ ورحالة كانت الفتاوي تأتيه من مصر وغيرها ونسبته الرميلي الى قرية إسمها الرميلة من أراضي فلسطين قتـل ببيت المقدس شهيداً محارباً مقبلا غير فار وهو من أبناء الستين - الأعلام للزركلي ٠

(٣) انظر ترجمة كل من دقاق بن تتش وجناح الدولة حسين في ملاحق كتابي: مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٣٧٦ ـ ٣٧٩ ، ٣٨٦ ٠

ثم إن الفرنج أخذت سَرُوج(١) بالسيف ، وأرسوف(٢) بالأمان ، وأخذوا قيسارية بالسيف .

وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة : نازل الفرنج طرابلس(٣) الشام ، فتوجه لنصرتها عسكر مصر ، وعسكر دمشق وحمص ، فبرز لهم بردويل صاحب القدس ، فقتلوا معظم فرسانه، وانهزم وثلاثة(٤) أنفس، ثم عاد عسكر دمشق، فكشفوا عن طرابلس .

وقُتل جناح الدولة ، صاحب حمص ، فقدم صاحب أنطاكية ، وحاصر حمص ، فبذلوا له مالا كثيراً ، فرحل عنهم ثم تسلم حمص صاحب دمشق السلطان دُقاق السلجوقي ، [٥ ـ و] .

وفي هذه السنة التقى سلطان الروم الفرنج ، فكسرهم وأسر خلقاً كثيراً ، ووصل ملك الفرنج صيخيل [صنجيل] الى بلاد الشام في ثلاثمائة ألف ، وحاصر طرابلس مدة ، ثم حاصر حمص ، ووصل ملك الفرنج القمص عكا ، واستمر صيخيل [صنجيل] محاصراً طرابلس وحمص ، واستمر القمص

---

(١) بلدة قريبة من حران من ديار مضر ـ معجم البلدان .

(٢) مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا ـ معجم البلدان .

(٣) كانت طرابلس تحكم آنئذ من قبل أسرة آل عمار ـ انظر كتابي : (تاريخ العرب والاسلام) ص : ٣٧٥ ، وكتاب : (طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي) تأليف السيد عبد العزيز سالم ص : ٦٤ ـ ٧٦ .

(٤) اختبأ بعد هزيمته في أجمة قصب ، وقد طرح المسلمون فيها النار فأصابه طرف منها كان من أسباب موته فيما بعد . انظر : ذيل تاريخ دمشق : ١٤١ . مرآة الزمان . ط . حيدر أباد الدكن : ٨/١/٢ .

محاصراً لعكا[1] ، ثـم كشف [كشفـه] عسكر دمشق عن عكا ومنعوه من دخولها ، ثم توجـه القمص الى بيروت ، وحاصرها مدة ، ثم رحل عنها ، ولم يقدر عليها ٠

وفي هذه السنة استنقذ المسلمون بلنسية[2] من الفرنج ، وكانت الفرنج قد أخذوها من ثمان [ثماني] سنين ، فصارت دار الاسلام الى سنة ست وثلاثين وستمائة ، وبلنسية من أعظم مدائن الأندلس ٠

وفي هـذه السنة قدمت عساكر مصر ، وحاصروا الفرنج بمدينة يافـا ، ثـم التقوا هـم والفرنج ، فقتـل من الفرنج أربعمائة نفس ، وأسروا ثلاثمائة ، ويافا مدينة من سواحل الشام ، بالقرب من غزة [٥ ــ ظ] ٠

وفي هذه السنة أخذ الفرنج جُبَيْل بالأمان ، ثم غدروا بهم ، ثم إن الفرنج رجعوا الى عكا وجددوا عليها الحصار ، هذا وطرابلس في الحصار ، ثم أخذوا عكـا بالسيف وقتلوا المسلمين بها[3] ٠

ثـم نازلوا [نازل] الفرنج حران ، فخـرج [فخرجت] اليهم عساكر الشام ، فالتقى المسلمين [المسلمون] والفرنج ،

---

(١) يبدو أن هذا كان سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م ٠ انظر ذيل تاريخ دمشق : ١٤٣ــ١٤٤ ٠ مرآة الزمان: ٨/١/٨ History of Deeds done Beyond The sea لوليم الصوري Vol - 1 - P. 453

(٢) من أشهر مدن الأندلس ما تزال تحمل ذات الاسم في اسبانية اليوم ٠

(٣) انظر ابن القلانسي : ١٤٣ ــ ١٤٤ ٠ مرآة الزمان : ٨/١/٩ ٠ وليم الصوري PP. 454 - 456 ٠

فانتصر المسلمين [المسلمون] ، وكانت وقعة عظيمة مشهورة ، وذلت الفرنج ، وقتل منهم اثنا عشر ألفاً [١] ·

وفي هذه السنة مات صاحب دمشق شمس الملوك السلطان دُقاق[٢] بن تُتُش السلجوقي ، وتولى بعده ولده ، وكان صبياً صغير السن ، وجعل أتابكه[٣] طغتكين ·

هذا والفرنج محاصرين [محاصرون] طرابلس ، وبنوا قريباً منها برجا حصينا ، فخرج صاحب طرابلس عبد الله بن عمار ، فهجم على البرج ، وقتل كل من كان فيه وأخربه [وخَرَّبه] واشتد الغلاء بطرابلس ، وأكلوا الجيف ، ثم بعثوا الى مصر في البحر ، واستنجدوا بعساكرها ، ويشكوا [ويشكون] من الجوع والغلاء والبلاء ، فجاءهم من مصر [٦ ــ و] شرف الدولة ، ومعه الغلال وقوت [وأقوات] كثيرة في البحر ، ودام الحصار على طرابلس مدة خمس سنين ، ثم تجمعت ملوك الفرنج كلها على طرابلس ، وعملوا أبراجاً من خشب وحديد ، تمشي على عجل ، وألصقوها بالسور ، وآخر الأمر : إن

---

(١) انظر وليم الصوري : PP. 456 - 458 ·

(٢) مات مسموماً حسب رواية ابن عساكر ، انظر كتابي : (مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية) : ٣٨٦ ·

(٣) كلمة أتابك هي مركبة من عبارتين هما : « أتا و بك » و تعني « أتا » بالتركمانية أب أو عم ، و « بك » تعني أمير أو مقدم وعلى هذا فالترجمة الحرفية لأتابك هي : « العم الأمير » أو « الاب الامير » ، ولقد جرت عادة حكام التركمان من سلاطين وسواهم الزواج بعدة زوجات وتطليق بعض الزوجات بعد الانجاب لأسباب متعددة ، وغالباً ما كانت المطلقة تزوج من واحد من ضباط السلطان ، ويعهد للزوج الجديد بأمر رعاية شؤون الأمير الصغير ، وهكذا يغدو هذا الزوج « أتابكاً » ومع الايام تطورت وظيفة الأتابك وأخذت أبعاداً سياسية وعسكرية كبيرة ·

الفرنج أخذوها بالسيف ، وقتلوا منهـا خلقاً كثيراً واستولت الفرنج على طرابلس[1] ، ولله الأمر ·

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين صاحب حلب وبين الفرنج ، فكسروا صاحب حلب وملكوا [وملك] الفرنج قلعة أوتاج[2] [أرتاح] ·

وفي هذه السنة كانت وقعة عظيمة بين المسلمين والفرنج، وكانت هـذه الوقعة بـين يافـا وعسقلان ، ومقـدم الفرنج بغدوين ، وهم في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل ، وكانت المسلمين [وكان المسلمون] خمسة آلاف من المصريين وثلاثمائة فارس من الدمشقيين ، فثبت الجمعان حتى قتل من كل واحد منهما أكثر من ألف، ثم قطعوا القتال من غير هزيمة ·

ثم إن نواحي الشام امتلأت [٦ـظ] من الفرنج، وملكوا غالب بلاد الشام ، فخرج إليهم الأتابك طغتكين من دمشق ، وطردهم وقتل منهم ألوف [ألوفاً] كثيرة ، وزينت دمشق ·

وفي سنة احدى وخمسمائة : سار بغدوين من القدس ، وحاصر صـور [صوراً] ، وشـدّ في الحصار ، وبنـى قبالها حصناً ، فبذل له متوليها سبعة آلاف دينار ، فرحل عنها ، ونزل

---

(١) بسقوط طرابلس للصليبيين أقاموا فيها إمارتهم الرابعـة في الشرق ، وينبغي أن نلاحظ أن طرابلس سقطت سنة ٥٠٢ هـ وليس سنة ٤٩٥ كما جاء في الأصل هنا · انظر ابن القلانسي : ١٦٢ ــ ١٦٣ · مرآة الزمان : ٨/١/٢٧ · تاريخ العرب والاسلام : ٣٧٥ · وليم الصوري : PP. 477 – 78

(٢) احتلت أرتاح قبل هذا بوقت طويل وحدث الصدام المشار اليه هنا « في شهر رجب سنة ثمان وتسعين »وأربعمائة·انظر زبدة الحلب ٢/١٥٠ ·

على صيدا ، فكشف [فكشفه] عنها عسكر دمشق[1] ، وطرد الفرنج عنها ، ثم عطف عسكره ونزل على طبرية ، وهي في يد الفرنج ، فخرج اليهم صاحبها جرفاس[2] لعنه الله ، فأسروه وملكوا طبرية وأعمالها ، فخرج اليهم ابن أخت بغدوين وهم على طبرية فانكسرت الفرنج ، وأسر مقدمهم ، فبذل في نفسه اطلاق خمسمائة أسير وثلاثين ألف دينار ، فأبى طغتكين وذبحه .

ثم وقعت الهدنة بين المسلمين والفرنج أربع سنين[3] ، ثم تجمع قفل كبير ، وساروا [وسار] من دمشق الى مصر ، فأخذتهم [فأخذه] الفرنج ، وانقطعت السبل بالملاعين .

وفي سنة [٧ ـ و] ثلاث وخمسمائة : أخذت الفرنج بانياس وجُبيل بالأمان لعدم الأقوات ، وشدة الغلاء ، وكان بجبيل عبد الله بن عمار ، صاحب طرابلس[4] ، فهرب منها الى دمشق ، فأكرمه طغتكين ، وأقطعه الزبداني .

ثم إن الفرنج أخذت حصن الأكراد في هذه السنة[5] .

وفي سنة أربع وخمسمائة : نازل الفرنج بيروت ، وحاصروها براً وبحراً حتى أخذوها بالسيف[6] ثم أخذوا

---

(١) قال ابن القلانسي بأن وصول الاسطول المصري وهزيمته للاسطول الجنوي قباله ساحل صيدا مع توارد الأخبار بنهوض العسكر الدمشقي هو الذي سبب انسحاب الفرنجة ـ ذيل تاريخ دمشق : ١٦٢ .

(٢) كذا بالأصل ويبدو أن الاسم أصابه تصحيف صوابه جوسلين ـ انظر ابن القلانسي : ١٨٣ ـ ١٨٥ .

(٣) أورد ابن القلانسي : ١٦٤ بأن ذلك كان سنة ٥٠٢ هـ .

(٤) حدث تسليم جبيل قبل هذا التاريخ ـ انظر ابن القلانسي : ١٦٤ـ١٦٥ .

(٥) مشهور باسم قلعة الحصن الى الغرب من حمص في غاية الحصانة محافظ حتى الآن على شكله التاريخي الى أبعد الحدود . انظر ابن القلانسي : ١٦٧ .

(٦) حدث هذا عند ابن القلانسي سنة : ٥٠٣ ـ ذيل تاريخ دمشق : ١٦٧ ـ ١٦٨ . وليم الصوري : PP. 442 - 443 .

صيدا بالأمان ، وأقام بها أكثر عوام المسلمين، فقررت الفرنج عليهم في كل سنة عشرين ألف دينار ·

وفي هذه السنة أخذت الفرنج حصن الأثارب ، وحصن رودبا [1] [زردنا] بالسيف ، وهما من أعمال حلب ، وأخلى أهل منبج وأهل بالس[2] بلديهما ، وأيقنت المسلمين [وأيقن المسلمون] باستيلاء الفرنج على كل اقليم الشام ، وطلبوا الهدنة من الفرنج ، وصالحهم رضوان صاحب حلب على قطيعة ثلاثين ألف دينار[3] ، وثياب وخيل ، وصالحهم صاحب حماة على ألفي دينار[4] ، وصالحهم صاحب شيزر [٧ ـ ظ] على قطيعة عشرة آلاف دينار[5] ، وصالحهم صاحب حمص على أربعة آلاف دينار[6] ·

ثم سارت [سار] أهل الشام الى بغداد ، واستغاثوا وسبوا الخليفة ، وكسروا منبر جامع السلطان ، وكثر الضجيج

---

(١) تعرف الأثارب الآن باسم الأتارب وهي واقعة الآن في منطقة جبل سمعان التابعة لمحافظة حلب في سورية وتبعد عن حلب مسافة / ٢٩ / كم وزردنابليدة من نواحي حلب الغربية ـ معجم البلدان · انظر أيضاً زبدة الحلب ٢/١٥٥ ـ ١٥٦ ·

(٢) منبج ما تزال معروفة في شمالي سورية ، وأما بالس فهي بلدة مسكنة الحالية على الفرات في سورية ·

(٣) المبلغ في زبدة الحلب : ٢/١٥٦ « عشرون ألف دينار » ·

(٤) كانت حماة ضمن أملاك رضوان بن تتش صاحب حلب ، وذكر ابن العديم في ترجمة رضوان في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب : « ولم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماه ، وليس في يده من الأعمال الغربية شيء » · انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٣٩٢ ـ ٣٩٣ ·

(٥) كانت شيزر في يد الأسرة المنقذية ·

(٦) كانت حمص من أملاك دمشق ·

والبكاء والعويل ، واستنجدوا بالخليفة والسلطان ، وبطلت الجمعه ببغداد وسائر بلاد الشام ، فأخذ الخليفة في الأهبة ، وتهيأ السلطان للغزاة فلم يتم ذلك لضعف عساكر العراق ، ولله الأمر .

وأيسوا [وأيس] أهل الشام من أنفسهم وأموالهم وحريمهم ، ولم تنجدهم عساكر مصر ولا عساكر العراق ، وشرعوا في مصالحة الفرنج ، وأحمى [وحمى] رضوان مدينة حلب ، وكان فارساً شجاعا .

ثم إن الفرنج تجمعوا ونزلوا على صور ، فسار عسكر دمشق ، وحاربوهم [وحاربهم] وطال الحصار على صور ، وعملت الفرنج برجاً من خشب علوه سبعون ذراعا وشحنوه بالمقاتلة ، وجروه على العجل فألصقوه بالصور [بالسور] فأحرقوه المسلمين [فأحرقه المسلمون] بالنفط ، وقاتل المسلمين [المسلمون] على صور قتال [٨ ـ و] الموت ، وخافت الفرنج من طغتكين أن يحرق الغلات ، ثم أخذوا من أهل صور مالا ورحلوا عنهم(١) .

وفي سنة سبع وخمسمائة : التقى المسلمون والفرنج بالأردن ، واشتد الحرب ، وثبت الفريقان ، ثم ذلت الفرنج ، ووضعت المسلمين [ووضع المسلمون] فيهم السيف قتلا وأسراً ، وأسر المسلمين [المسلمون] بغدوين لعنه الله ، ولم يعرف ،

(١) سبق للمصنف أن أورد هذا الخبر في حوادث سنة : ٥٠١ هـ .

فأخذ الذي أسره سلبه ، وكان يساوي جملة مال ، فأطلقه ، فنجا جريحاً ، ومات[1] بعد أيام لعنه الله ٠

ثم جاء في النجدة أفرنج أنطاكية ، وأفرنج طرابلس ، فقويت نفوس الفرنج ، وكروا فنشبت نار الحرب ، فاستظهر عليهم المسلمين [المسلمون] فدام الحرب بينهم ستة وعشرين يوماً ، وعدمت الأقوات ، فسار المسلمون الى بيسان ، ونهبوا ضياع الفرنج من القدس الى عكا ، ثم نزل جيش المسلمين على مرج الصفر ، ودخلوا دمشق ومعهم [ودخل دمشق ومعه] مودود صاحب الموصل ، وأقام عند صديقه طغتكين بدمشق ، وصرف عساكره وأمرهم [٨ ـ ظ] بالقدوم في زمن الربيع ، ثم دخل هو وطغتكين يوم الجمعة الى الجامع ، ويده في يده في الجامع ، فوثب على مودود[2] رجل من الاسماعيلية ، جرحه وقتله ، ثم أخذ الاسماعيلي فأحرق ، فكتب ملك الفرنج الى دمشق :

وإن أمة قتلت عميدها يوم عيدها ، في بيت معبودها ،
لحقيق على الله أن يبيدها ٠

ودفن مودود بخانقاه الطواويس عند دُقاق ٠

وفي هذه السنة مات رضوان بن تتش[3] السلجوقي ،

(١) حدثت الوفاة سنة ٥١١ هـ / ١١١٧م « بعلة طالت به » انظر ابن القلانسي : ١٩٩ ٠ وليم الصوري : Vol. / - PP. 515 - 5/6

(٢) انظر ابن القلانسي : ١٨٧ ٠

(٣) توفي في رجب من سنة ٥٠٧ ٠ انظر كتابي : « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » : ٣٩٦ ٠

صاحب حلب ، وملك بعده أرسلان[1] ، وكان رضوان ظالماً غاشماً ، إلا أنه كان فارسا شجاعا ، تهابه الفرنج ·

وفي سنة ثمان وخمسمائة : قدم آقسنقر البَرْسِقي[2] وهو نائبا [نائب] على الموصل ومعه خمسة عشر ألف فارس لغزو الفرنج ، وأخذ مرعش بالأمان ·

وفي هذه السنة مات بغدوين الفرنجي ، الذي ملك القدس ، وكان [وكانت] وفاته بصبخة بردويل[3] ، فشقوه وصبروه ، ورموا حشوته هناك ، فهي ترجم [٩ـو] الى اليوم ، ودفنت جثته بالقمامة ، وكان خبيثا شجاعاً ، وتملك القدس بعده القمص الفرنجي ·

وفي سنة ثمان [ثماني] عشرة وخمسمائة : أخذت الفرنج صور لشدة الغلاء بها وعدم أقواتها[4] ، فدامت بيد الفرنج الى سنة تسعين وستمائة ، ولم يكن بالشام مدينة أشد حصنا منها ·

وفي سنة اثنى [اثنتين] وعشرين وخمسمائة توفى طغتكين صاحب دمشق ، وكان بطلا وشجاعاً كثير الجهاد[5] ،

(١) هو ألب أرسلان ، يعرف بالأخرس قتل يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر سنة ثمان وخمسمائة · انظر ترجمته في كتابي : « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » : ٢٩٤ ـ ٢٩٧ ·

(٢) هكذا جاء الضبط في الأصل وهو خطأ صوابه (البُرْسقي) ·

(٣) سلف أن ذكر المصنف وفاته في أخبار السنة السالفة ·

(٤) انظر ابن القلانسي : ٢١١ ·

(٥) انظر ترجمته المنتزعة من تاريخ ابن عساكر · « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » : ٤٠٨ ·

وهو الذي نقل مصحف عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ من طبرية الى جامع دمشق ، وجعله بمقصورة الخطابة ، وتملك بعده ولده تاج الملوك بُوري ·

وفي هذه السنة حاصرت الفرنج دمشق ، ثم تناخى عسكر دمشق والتركمان ، والفلاحين [والفلاحون] والعربان ، على الفرنج فهزموهم ، وقتل وأسر من الفرنج خلق عظيم ·

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة : غزا عسكر حلب اللاذقية ، وأسروا من الفرنج سبعة آلاف،وأخربوا [وخربوا] اللاذقية (١) ·

وفي سنة [٩ ــ ظ] ثلاث وأربعين وخمسمائة : جاءت الفرنج مع ملوكهم الى القدس ، ورجعوا الى عكا فأنفقوا في العساكر سبعمائة ألف دينار ، ثم نزلوا على دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فبرز عسكر دمشق في نحو المائة ألف راجل ، فالتقوهم فقتل من المسلمين مائتي [مئتا] رجل، منهم الشيخ الزاهد يوسف القندلاوي ، والشيخ عبد الرحمن الجَلْجُولي(٢) ، ثم برزوا من الغد وعملوا المصاف ، فقتل من المسلمين والفرنج خلائق كثيرة ، فلما كان في خامس يوم وصل في نجدة دمشق غازي صاحب الموصل في عشرين ألف ، ووصل أخوه نور الدين محمود من حلب في جيش عظيم ، وكان أهل دمشق قد فرشوا الرماد ، وحطوا المصحف العثماني في وسط الجامع ، وضجوا [وضج] الخلق وبكوا واستغاثوا بالله، والبنات والصبيان مكشوفين ، [مكشوفو] الرؤوس يتضرعون

---

(١) حدث هذا سنة : ٥٣٠ عند ابن العديم في زبدة الحلب : ٢/٢٦٠ــ٢٦١٠

(٢) في ذيل تاريخ دمشق : ٢٩٨ « القندلاوي » و « الحلحولي » ·

الى الكريم الغفار ، فلما وصل عسكر الموصل ، وعسكر حلب مع نور الدين محمود [١٠ ــ و] ولت الفرنج منهزمين بعد أن قتل من الفرنج ألوف كثيرة ، ونزل النصر من الله ، وقتل صاحب أنطاكية في ألف وخمسمائة أفرنجي، وذل دين الصليب .

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة : أخذت الفرنج عسقلان ، وكانت للخلفاء الفاطميين خلفاء مصر ، وقد حاصرتها الفرنج قبل ذلك مرات ، وعجزوا عنها ، ثم أخذوها بعد قتال شديد ، وقتل بها خلق كثير من المسلمين ، وعظم الخطب ، وقضي الأمر ، وعسقلان مدينة عظيمة بسواحل الشام ، بالقرب من غزة[1] .

وفي سنة اثنى [اثنتين] وخمسين وخمسمائة: كانت وقعة عظيمة على صفت[2] بين نور الدين وبين الفرنج ، ونصره الله تعالى على الفرنج وذلهم .

وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة : سار نور الدين بجيشه فنزل تحت حصن الأكراد قاصداً حصار طرابلس ، فكبسه الفرنج ، وانهزم جيشه ، ونجا هو ، فنزل على بحيرة حمص[4] [١٠ ــ ظ] وحلف بالله لا يضله [لا يظله] سقف حتى يأخذ بالثأر ،وشرع يلم شعث العسكر، ثم أخذ نور الدين بثأره وكسر الفرنج كسرة عظيمة ، وأسر البرنس والقومص، وذلت له الفرنج .

---

(١) انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣١٩ ــ ٣٢٢ .
(٢) هي صفد الحالية في فلسطين المحتلة . انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٤١ .
(٣) في الروضتين : ١/١٢٧ــ١٢٨ كان هذا سنة ثمان وخمسين وخمسمائة .

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة كانت وقعة عظيمة بحارم بين نور الدين والفرنج، فانكسر المسلمين [المسلمون]، وأحاط بهم العدو ، ثم انتصر المسلمين [المسلمون] بعد ذلك ، وكثر القتل في الفرنج ، وأسر صاحب أنطاكية ، وصاحب طرابلس ، ومقدم نصارى الروم ، وحصل من الفرنج أكثر من عشرة آلاف أسير ، وأخذ نور الدين حارم وبلنياس ، وكانت في يد الفرنج من مدة ستة عشر [ست عشرة] سنة(١) .

وفي سنة احدى وستين وخمسمائة : افتتح نور الدين حصن المنيطرة ، وهو حصناً قريبا [حصن قريب] من كسروان(٢) .

وفي هذه السنة(٣) حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوماً ، ثم ترحلوا عنها لأن نور الدين أغار على السواحل ، وأنفق [١١ـ و] العاضد بالله في هذه المحاصرة ألف ألف دينار على يد السلطان صلاح الدين يوسف ، وحاصر السلطان نور الدين الكرك(٤) ، ونصب عليها المناجيق ، فلم يقدر عليها .

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة سار صلاح الدين [نور الدين] الى الموصل ، وصلى بالجامع ، ثم رجع ، وفتح

---

(١) انظر الخبر مفصلا في الروضتين : ١/١٣٣ ـ ١٣٤ . وحارم اليوم مركز احدى مناطق محافظة ادلب في شمال سورية وتبعد عن ادلب مسافة ٥٣كم .

(٢) في شمال لبنان قرب طرابلس . انظر الروضتين : ١/١٤١ .

(٣) كذا في الأصل ، وفي الروضتين : ١/١٨٠ ـ ١٨٢ حدث هذا في أول صفر سنة خمس وستين وخمسمائة .

(٤) كذا في الأصل ، وفي الروضتين : ١/٢٠٣ ـ ٢٠٤ كان هذا سنة سبع وستين وخمسمائة .

بَهَسْنا[1] ، ومرعش[2] ، وكانا [وكانتا] بيد الفرنج[3] .

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة : توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر ، وكنيته أبو القاسم الشهيد ، وكان معتدل القامة ، أسمر اللون ، واسع الجبهة ، حسن الصورة ، خفيف اللحية ، وفتح نيفاً وخمسين حصنا ، وخُطب له في الدنيا ، واتسع ملكه ، وملك الموصل والجزيرة وديار بكر ، ودمشق وحلب ، ومصر واليمن والحجاز ، وكان عادلا ديناً ، حريصا على فعل الخير لطيفا ، متواضعا يحب الصالحين ويزورهم ، ويضيق هذا المختصر عن ايضاح محاسنه ودينه وشجاعته [١١ ــ ظ] وغزواته وفتوحاته ومساجده ، ومدارسه ، وبره وعدله، ومناقبه أكثر من أن تحصى وتحصر، ومات في شوال[4] بعلة الخوانيق بدمشق ، ودفن في تربته المنسوبة اليه داخل دمشق ، وعمره ثمان وخمسون سنة ، ومدة ولايته ثمان وعشرون سنة ، وكان ملكاً عظيما جليلا عابداً عالما زاهداً ورعاً مجاهداً ، كثير الصدقات ، وولي مكانه ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ، فأخذها ونزعها منه صلاح الدين يوسف ، وأخذ أكثر بلاده .

ثم تحركت الفرنج لموت[5] نور الدين،وتهيأ صلاح الدين

---

(١) بهسنا قلعة حصينة بقرب مرعش وسميساط ــ معجم البلدان .

(٢) كانت مرعش بين بلدان الثغور مع بيزنطة ، وكانت حصينة لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور ــ معجم البلدان .

(٣) انظر الروضتين : ١/٢٠٧ .

(٤) في الحادي عشر ــ انظر الروضتين : ١/٢٢٧ ــ ٢٣٠ .

(٥) انظر الروضتين : ١ / ٢٣١ .

لقتالهم ، وقدم الى الشام من مصر ، وتملك دمشق ، فأعطى عماد الدين اسماعيل حلب وأعمالها ٠

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة : حاصرت الفرنج حماة أربعة أشهر[1] ، ثم قدم صلاح الدين الى دمشق ، فلما سمعت الفرنج بقدومه رحلوا عنها ٠

وفي سنة خمس وسبعين [١٢ــو] وخمسمائة كانت وقعة مرج العيون ، ذلك أن السلطان صلاح الدين كان ببانياس ، فركب يسير فرأى راعياً، فأخبره بقرب الفرنج، فرد الى بانياس ولبس وركب الجيش ، فكبسوا الفرنج ، وهم عشرة آلاف ، فكسرهم المسلمين [المسلمون] وقتلوا شطرهم ، وأسروا منهم مائتي [مائتين] وسبعين أسيراً ، منهم مقدم الداوية ، وأخو صاحب جبيل ، وابن صاحب مرقيه ، وصاحب طبرية ، فاستفك [فافتك] بعضهم نفوسهم بالأموال ، وهرب مقدمهم جريحاً [2] ، فبعث صلاح الدين الى خليفة بغداد بجماعة من الأسرى ، وبشيء كثير من التحف والنفائس والأموال ٠

وفي سنة ثمانين وخمسمائة : سار السلطان صلاح الدين الى الكرك ، ونصب المناجنيق [المناجيق] عليها ، وحاصرها

---

(١) انظر الخبر مفصلا في الروضتين : ١/٢٧٥ ٠

(٢) ذكر وليم الصوري : ٢/٤٤٣ هذه الواقعة وأسماء بعض الأسرى وهم : يودس Eudes مقدم فرسان ــ المعبد ــ الداوية ــ بلدوين Baldwin صاحب الرملة ٠ هيوج Hugh صاحب طبرية ٠
انظر الروضتين : ٢/٨ــ٩ ٠

فتجمعت عليه ملوك الفرنج ، فرحل عنها ، ولم يقدر عليها ، ورجع الى دمشق(١) ·

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : طلب السلطان صلاح الديـن عساكر النواحـي ، ونزل بأرض بصرى من حـوران [١٢ ـ ظ] ليحمي الحجاج من الفرنج ، ثم سار فأحرق أعمال الكرك والشوبك ، وتجمعت الجيوش بحوران ، وأغاروا على طبرية ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وعرض السلطان صلاح الدين جيوشه ، وأنفق الأموال ، وسار فنزل على الأردن ، ثم فتح طبرية بالسيف ، ثـم حشدت الفرنج ، وأقبلوا كالليل ، فرتب السلطـان عساكـره في مقابلتهم ، وكانت المسـلمين [وكان المسلمون] اثني عشر ألف فارس غير الرجالة ، وكانت الفرنج ثمانين ألف ما بين فارس وراجل ، فالتجوا [فالتجأ] الفرنج الى جبل حطين ، ، فأحاط المسلمين [المسلمون] بهم ، فهرب القومص، ثم وقع الحرب ، ونزل النصر ، وخذل العدو ، وأسر ملكهـم كـُي ، وأخوه ملـك جبيـل ، وهنفري وأزباط [وأرناط] صاحب الكرك ، وخلق كثير من الفرنج ، ثم قتل السلطان أزباط [أرناط] بيـده ، وكـان أزباط [أرناط] فارس ديـن النصرانية ، وأزباط [أرناط] هو الـذي جهز الجيوش لأخذ المدينة النبوية [١٣ ـ و] فأهلكهم الله(٢) ·

فلما فرغ السلطان من هذه الوقعة بادر الى عكا ، فأخذها بالأمان ، واستناب على عكا الأمير بهاء الدين قراقوش ·

---

(١) انظر الروضتين : ٢/٥٤ ـ ٥٦ ·
(٢) انظر الروضتين : ٢/٧٥ ـ ٨٧ ·

وبلغ الملك العادل هذا النصر العظيم ، فأسرع من مصر بجيوشها ، ففتح مدينة يافا وغيرها بالسيف وفتحت : المجدل، والناصرة ، وصفورية، وقيسارية، ونابلس ، وحصن الفولة، وتبنين ، وعسقلان ، وصيدا ، وبيروت ، وجزين ·

وذلت الفرنج ، وأيقنوا بالهلاك ، وسلموا حصون [حصونا] كثيرة منهم : حصن الجيسوع[1] ، وحصن لبنان ، والمنيطرة ، وعذنون ، ونازل [ونازلت] كل فرقة من الجيش بلد من هؤلاء ، ثم سارت جيوش المسلمين وأخذوا : غزة ، والرملة ، والدارون ، وبيت حبرون ، وأخذوا البشرون بالأمان ·

ورجع السلطان صلاح الدين الى دمشق بجيوش المسلمين مؤيداً منصوراً ، ثم سار السلطان الى القدس ، فنازله يوم الأحد منتصف رجب ، وكان قد نزل على غربيه أولا [١٣ ــ ظ] ثم انتقل الى شماليه من باب العمود الى برج الزاوية ، ومن هذا المكان أخذته الفرنج ، وكان القدس مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجّالة ما يزيد على ستين ألفاً ، غير النساء ، فنصب عليه المناجنيق [المناجيق] وآلة القتال ، وتعلق النقابون بالسور ، وقاتلت الفرنج قتالا شديداً ، ثم إن الفرنج أيقنوا بالهلاك والخذلان ، وطلبوا الأمان ، فبطل عنهم القتال ، واستقر الأمر على أن يخرجوا بأنفسهم وأموالهم وأولادهم سوى الخيل الحربية ، والسلاح ، بعد أن يؤدي كل واحد منهم

---

(١) هذا اسم مصحف سيرد فيما بعد « الجيتوع » ولعل « الجيدور » هو الأصل الصحيح ، والجيدور كورة من نواحي دمشق وهي في شمالي حوران ــ معجم البلدان · هذا وقد أورد صاحب الروضتين : ٢/٨٥ــ٩٢ روايات مفصلة حول هذه الفتوحات ·

عن الرجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمس [خمسة] دنانير ، وعن الصبي والبنت أربعة دنانير ، وعن الطفل دينار ، ومن عجز منهم كان رقيقاً يستملك ، ومن أراد من النصارى الاقامة فليقم ، ويؤخذ [وتؤخذ] منه الجزية ، وأقر بأيديهم القمامة، وعينوا أماكن يزورونها ، وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشرين رجب ليلة المعراج ، فكانت مدة استيلاء الفرنج عليه اثنى [اثنتين] وتسعين سنة [١٤ ـ و] لأنهم أخذوه سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، وكان بالقدس البطرك الأكبر ، فهمّوا المسلمين [فهم المسلمون] بنهبه ، فمنعهم السلطان ، وقال : الوفاء خير ، وكان بالقدس ملك الرملة، فأدى عن نفسه ثمانية عشر ألف درهم ، وصعد المسلمين [المسلمون] الى رأس قبّة الصخرة ، فرموا الصليب الذهب، فضج المسلمون ضجة عظيمة لم يسمع بمثلها ، ودخل السلطان الصخرة ، وغسلها « بالماورد » وبلحيته وهو يبكي(*) ، ومحا الصور منها ، وكسر الصلبان ، وأخرب دار الداوية ، وعمرها المسجد الأقصى ، وفرق الأموال الذي [التي] أخذها من الفرنج على العلماء والفقهاء والصوفية ، وكانت سبعمائة ألف دينار ، وكان قد حضر معه هذا الفتح زهاء عن عشرة آلاف مقاتل ، ومحيت التصاوير من الحرم ، وعلقوا القناديل ، وطهروه وبسطوه ، وتطاول جماعة من الأعيان الى الخطابة ، وصنف كثيراً [كثير] من العلماء خطباً بليغة ، فذكر السلطان قول ابن الزكي قاضي [١٤ ـ ظ] القضاة بدمشق ٠

(*) في حاشية الأصل : قف على بعض مكارم أخلاق الملوك السالفة ٠

وفتحه حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فأعطاه الخطابة ، فخطب يـوم الجمعة بحضرة السلطان والأمراء ، وتلا قوله تعالى : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين[١] » ، ولبعضهم يقول[٢] :

أتـرى مناما مـا بعيني أنظـر
القدس تفتح والنصارى تُكْسَر[٣]

« قـد جاء نصر الله والفتح » الـذي
وعد الرسول ، فسبحوا واستغفروا

ثم بادر السلطان بعد فتح القدس ، فنازل صور ، ونصب عليها المناجنيق [المناجيق] وحاصرها أربعة أشهر ، فلم يقدر عليها[٤] ، ثم رحل عنها لما جاء فصـل الشتاء ، وأقام بعكا شهرين الى أن انفصل الشتاء ، ثم سار الى جبلة ، فتسلمها في الحال ، ثم تسلم الشعر [الشغر] وبكاس ، ففتح في ست جمع ست قلاع ، وهم [وهي] : جبـلة ، واللاذقيـة ، وصهيون ، والشغر ، وبكاس ، وسرمانية [١٥ ــ و] ثم أخذ حصن برزية بالأمان ، ثم دخل الى دربساك ، والى بغراس ، فتسلمها ، وعزم على قصد أنطاكية ، فطلب صاحبها الهدنة ، فهادنة ، ثم دخل

---

(١) الأنعـام : ٤٥ .

(٢) انظر الخبر بشكل مفصل في الروضتين : ٢/١٠٩ ــ ١١٥ . شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : ١٢٨ ــ ١٥٨ .

(٣) البيتان من قصيدة لابن الجواني محمد بن أسعد نقيب الأشراف في مصر آنئذ ، وقد أوردها صاحب الروضتين : ٢/١٠٥ ، وروايته للبيت الأول أصح من رواية الأصل هنا :

أترى منـاماً ما بعينـي أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر

(٤) انظر الخبر مفصلا في الروضتين : ٢/١١٩ ــ ١٢٠ .

الى حلب ، ورد الى دمشق ، ثم سار الى الكرك وتسلمها بالأمان لشدة الغلاء والقحط ، ثم سار الى الشوبك وتسلمها بالأمان ، ثم سار وحاصر صفد ، ثم وصل اليه أخوه العادل من مصر ، وأخذ صفد بالأمان لشدة الغلاء، ثم أخذ حصن كوكب بالأمان، ثم رجع الى القدس ، وعمل عيد الأضحى بها ، ثم سار الى عسقلان ورتب مصالحها واستناب بها ، ثم جهز أخوه العادل الى مصر خوفاً عليها من الفرنج[1] ، ثم جُدد الحصار على عكا في آخر السنة ٠

وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة : حشدت الفرنج من جزائر البحر ، وهم أهل القسطنطينية ، وورومية ، وجنوه وبيره [بيزه] وموريقا ، وردوس [ورودس] والبندقية ، وأقريطش وقبرص [١٥ ـ ظ] واللبزدية [واللنبردية] وصقلية وغيرهم ، وقامت قيامتهم على ذهاب القدس منهم ، وتجمعوا بعددهم وعديدهم وجيشهم وجيوشهم على حرب صلاح الدين ، فالتقاهم فكسروه ، وقتل من المسلمين خلائق كثيرة ، وأقامت الفرنج بعكا ، وكان قد أخذها صلاح الدين ، ورتب عليها نائباً وعسكراً ، فقتلوا كل من فيها من المسلمين ، وأحاطت بها الفرنج براً وبحراً ، فنزل السلطان صلاح الدين في مقابلتهم ، وجاءت الفرنج النجدات من البحر حتى ملؤوا البر والبحر ، وطال الأمر ، وعظم الخطب ، وجرى بين المسلمين والفرنج من الحروب مالا يوصف ، ودام الحصار على عكا عشرين شهراً ، والفرنج بعكا والمسلمين [والمسلمون]

(١) وقعت هذه الأعمال كلها سنة ٥٨٤ ، انظر أخبارها بشكل مفصل في الروضتين : ٢/١٢٦ ـ ١٣٨ ٠

محيطون بهم ، والحرب بينهم سجالا [سجال] وعساكر الاسلام تقــوى ، وعساكر الفرنج تقــوى ، ويأتي الفرنج من البحر مراكب في عــدد أمواجــه ، فاذا قتــل [١٦ ــ و] المسلمــين [المسلمون] أفرنجي [أفرنجياً] أخلف البحــر مكانــه ألف أفرنجي ، وأرسل السلطان صلاح الدين الى الخليفة يستمده ويستنصر به ، هذا والقتال مستمر ، والنفوس قد استحكمت، وجرى من الحروب على عكا ما يضيق هذا المختصر عن ذكره ، ولا يسعه ، واستمرت النصارى مالكين عكا ، وعجز السلطان صــلاح الدين عن دفعهم ، وقتــل كثير من المسلمين[1] ، ثــم ترحلت الفرنج لقصــد عسقلان ، فالتقاهم السلطان صلاح الدين بنهر القصب ، فانكسرت الفرنج ، ورجعت الى عكا ، ووصل السلطان الى عسقلان فدخلها وهدمها ، وهــدم حصن الرملة ، ولدّ خوفاً من استيلاء الفرنج عليهم ٠

وفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة : توفي السلطان الكبير الأعظم المجاهد في سبيل الله ، الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجــم الدين أيوب بن شــاذي بن مروان ، ومولده بتكريت سنة اثنى [اثنتين] وثلاثين وخمسمائة ، فملك البلاد [١٦ ــ ظ] ودانت له العباد ، وقهــر الفرنج ، وافتتح عدة مدائن ، وجاهد في سبيل الله ، وأنفق الأموال في الغزاة ، ولم يخلف سوى دراهم يسيرة ، وكانت دولته أربعاً وعشرين سنة ، وعمره ست وخمسين سنة ، وكان ملكاً حسن العقيدة ، شديد التمسك بالشريعة، يحب العلم والعلماء ، كريماً كثير العطايا، والشاهد على ذلك أنــه ملك الحجاز واليمن ومصر وأعمالها

(١) بدأت هذه الأحداث سنة خمس وثمانين وظلت مستمرة حتى سنة ثمان وثمانين ــ انظر الروضتين : ٢/١٤٣ ــ ١٩٦ ٠

والشام وبلادها، وديار بكر وديار ربيعة ومضر ، ومات وما في خزائنه غير دراهم يسيرة ، قيل إنها أربعين [أربعون] ديناراً ، وقيل أربعة عشر ديناراً ، والله أعلم ٠

وخرج الملك صلاح الدين المذكور الى الشام بعد وفاة نور الدين ، ففتح البلاد وملك دمشق ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، وآمد ، وكسر الفرنج على باب حطين ، وفتح طبرية والقدس والكرك ، والشوبك ، وجبلة ، واللاذقية ، وصهيون، وجُبيل ، وبيروت ، وصيدا وصور وعكا ، وقيسارية [١٧ـو] وعسقلان ، ويافا ، وأرسوف ، وبيت حبرون ، وفتح الحصون الاسماعيلية ، وأخذ صفورية والناصرة ، والمجدل ، وجزين ، وحصن الجيتوع[١] ، وحصن المنيطرة ، وحصن لبنان ، والفولة ، وتبنين ، وغيرها من البلاد ، يضيق هذا المختصر عن ذكرها ، وافتتح بسيفه واخوته ، وآله من اليمن الى الموصل الى طرابلس الغرب الى أسوان ، ودفن بتربته بالكلاسة[٢] جوار جامع بني أمية بدمشق ، ومات بقلعة دمشق في شهر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فلقد غشي أهل دمشق يوم موته من البكاء والعويل والضجيج مالا يعبر عنه ، حتى كأن الدنيا كلها تضج صوتاً واحداً ، وعظم الأسف ، واشتد القلق ، وخلّف سبعة عشر ولداً ، منهم العزيز صاحب مصر ، والأفضل صاحب دمشق ، والظاهر [١٧ ـ ظ] صاحب حلب ، وله بنت واحدة ، واقتسمت [واقتسم] أولاده بعده البلاد[٣] ٠

(١) انظر ما تقدم في حاشية رقم / ١ / ص /٢٤/ ٠
(٢) انظر الروضتين : ٢/٢١٢ ـ ٢٢٤ ٠
(٣) انظر الروضتين : ٢/٢٢٤ ـ ٢٢٦ ٠

ثم سار العزيز عثمان بن صلاح الدين ، ومعه عمه العادل من مصر ، فنازل دمشق ، وحاصر أخوه [أخاه] الملك الأفضل علي [علياً] وكان قد ولاّه أبوه قبل موته دمشق ، فخامر عسكر دمشق ، وفتحوها ، ودخل العزيز الى دمشق ،واستناب على دمشق عمه العادل ، وتوجه العزيز عثمان الى مصر ، وأعطى أخوه [أخاه] الأفضل عوضاً عن دمشق صرخد(١) .

ثم توجه الملك العادل الى يافا ، وحاصر الفرنج بها ، وملكها وهدمها ، فنزلت الفرنج على بيروت ، وحاصرتها وكان نائبها عز الدين أسامة بن محمد بن أسامة الى(٢) منقذ، فهرب من الفرنج الى صيدا ، وترك بيروت ، فملكوها [فملكها] الفرنج بغير قتال ، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة(٣) .

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة: ثارت الفرنج وهاجت [١٨ ــ و] وحاصروا تبنين وانتشروا في السواحل ، وطمعوا في البلاد بعد موت صلاح الدين ، ثم وقعت الهدنة بين المسلمين والفرنج مدة خمس سنين ونصف(٤) ، ثم وقعت العداوة بين أولاد صلاح الدين ، وبين عمهم الملك العادل ، واشتغلوا بحرب بعضهم بعضاً [واشتغل بعضهم بحرب بعض] عن الجهاد في الفرنج ، ووقعت المسلمين [ووقع المسلمون] في مصائب عدة، منها حروب الفرنج ، ومنها حروب الملوك ، ملوك المسلمين ،

(١) انظر الخبر مفصلا في مفرج الكروب : ٣/٦١ ــ ٦٧ .

(٢) كذا وهو جائز وأفضل منه « ابن » . وعند ابن واصل : ٣/٧٥ حدث ذلك سنة ٥٩٤ هـ .

(٣) انظر مفرج الكروب : ٣/٧١ .

(٤) انظر الخبر في مفرج الكروب : ٣/٧٥ ــ ٧٨ .

والعداوة التي تجددت بينهم ، ومنها البلاء الشديد ، والقحط المؤلم التي [الذي] لم يسمع بمثله، فانا لله وإنا إليه راجعون، وسوف نذكر الغلاء في أيام العادل ، ان شاء الله تعالى[1] .

وفي سنة ستمائة : أقبلت جيوش الفرنج في البحر الى عكا على عزم أخذ القدس ، فبرز الملك العادل ، ونزل على الطور ، وأتته العساكر ، وغارت [وأغارت] الفرنج على النواحي ، وأغاروا على حماه وحمص ، وأسروا وسبوا فيهما ، وطمعت الفرنج [١٨ ـ ظ] في البلاد ، ثم غزاهم الملك العادل ، وصالحهم فيما بعد .

ثم سار الملك العادل بعد مدة ، فنازل عكا وحاصرها ، فصالحه صاحبها ، وبذل له مالا وأسرى أطلقهم ، ثم غار [أغار]العادل على أعمال طرابلس ، ثم سار العادل بجيوشه فنازل سنجار وضربها بالمناجنيق [بالمناجيق] وألح عليها ، فعد ذلك من ذنوبه ، لأنه ترك غزو الفرنج بالشام ، ويقاتل المسلمين على الدنيا .

ثم رجع العادل من سنجار بعد أخذها ، وأرسل الملك المعظم عيسى ومعه عسكر دمشق الى قتال الفرنج ، ونزل على الطور[2] ، وبنى هناك قلعة منيعة غرم عليها أموالا لا تحصى، وكملت في سنة ونصف ، وذلك في سنة سبع وستمائة[3] .

---

(١) انظر مفرج الكروب : ٣/٩١ ـ ١٣٤ .

(٢) كانت سنة ستمائة بداية لهذه الأحداث حيث أنها استمرت عدة سنوات. انظر مفرج الكروب : ٣/١٥٩ ـ ١٩٧ .

(٣) ذكر ذلك ابن واصل في حوادث سنة تسع وستمائة ، انظر مفرج الكروب : ٣ / ٢١٥ ـ ٢١٦ .

وفي سنة تسع وستمائة: تملك الباب صاحب عكا أنطاكية، وشن الغارات على التركمان ، وعمق حارم ، فتجمعوا ووقفوا له في واد هناك ، فقتلوه وقتلوا غالب جنده ولله الحمد [٩١ــو] والباب هو خليفة النصارى ، الذي يولي ملوكهم ٠

وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة : أقبلت [أقبل] الفرنج بفارسهم وراجلهم من البحار، وخرجوا الى عين جالوت ليأخذوا القدس ، فخاف الملك العادل ، وعجز وتأخر ، وتهيأ أهل دمشق للحصار ، وتحصنوا وغرقوا أرض داريا ، واختبط الناس ، وبعث العادل يستحث عساكر البلاد ، واجتمع الأكراد والتركمان والعُربان والفلاحين [والفلاحون] وتأخر الملك العادل الى مرج الصفر ، وضج الخلق الى الله تعالى ، ثم تأخرت [تأخر] الملاعين الى ناحية عكا ٠

وسارت [سار] خمسمائة من الفرنج ليأخذوا جزين ، ونزلوا على واد تحت جزين ، فأخلاها أهلها ، ثم تجمعت المسلمين [تجمع المسلمون] من تلك البلاد فكبسوا الفرنج ، وقتلوا أكثرهم وأسروا مقدمهم ، وفرقوهم وأبادوهم عن آخرهم ٠

فلما بلغ صاحب عكا ذلك غضب ، وشن الغارات على جزين وما حولها من [١٩ ــ ظ] القرى ، فنهض اليهم الملك المعظم عيسى بعساكر دمشق ، فتأخرت [فتأخر] الفرنج الى عكا ، ثم سارت [سار] الملاعين الى مصر في البحر لخلوها من العساكر ، ونزلت [ونزل] الملاعين على دمياط ، فجهز الملك العادل العساكر الى ابنه الكامل ليكشف عنها ، فأقبل ونزل تجاه دمياط ، ودام الحصار والقتال أربعة أشهر ، وأخذت

[أخذ] الفرنج دمياط ، وأول ما أخذوا برج السلسلة وهو برج شاهق في وصط [وسط] النيل ، ودمياط من شرقيه ، والجيزة بحذائه من غربيه ، وعلى جنبي البرج سلسلتان عظيمتان، تمتد هذه الى سور دمياط والأخرى الى سور الجيزة، فتمنع المراكب من العبور الى ديار مصر في النيل ·

وأما الملك المعظم صاحب دمشق فخرب قلعة الطور، وقلعة تبنين وبانياس خوفاً من استيلاء الفرنج عليهم ، وأدار الخمر والمكوس بدمشق واعتذر بقلة المال ·

وفي سنة خمس عشرة [٢٠ ــ و] وستمائة توفي السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب بن شاذي بن مروان ، ومولده ببعلبك ، وكانت وفاته بقرية بعاقلين من أعمال دمشق بالقرب من صيدا ، وحمل في محفة الى دمشق ودفن بتربته المنسوبة إليه ، وكان ملكاً مدبراً حليما صفوحا ، مدبر الممالك على الوجه المرضي عادلا مجاهداً ديناً عفوفا متصدقا، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، أبطل المظالم والقمار، والمكوس ، والخمور بدمشق ، وجميع البلاد ، وكان متحصل ذلك من دمشق ،خاصة مائة ألف دينار ، فأبطل الجميع ، ولقد فعل العادل في غلاء مصر مالم يفعله غيره ، وكفن من ماله للأموات بثلاثمائة ألف دينار للغرباء ·

وكان له أولاد كثيرة [كثر]منهم : شمس الدين مودود ، والكامل محمد ، والأشرف موسى ، والمعظم عيسى ، والأوحد أيوب ، والفائز إبراهيم ، وشهاب الدين غازي ، والعزيز عثمان ، والأمجد حسن ، والحافظ أرسلان ، والصالح اسماعيل ، والمغيث محمود ، وفخر الدين يعقوب، وتقي الدين

عباس ، وقطب الدين أحمد، والقاهر اسحق ، وخليل الأصغر، وكان له عدة بنات [٢٠ ــ ظ] أفضلهن خاتون ٠

واقتسمت [واقتسم] أولاده بعده البلاد[١] ، فملك مصر الكامل محمد ، وملك دمشق المعظم عيسى ، وملك الأشرف علي خلاط ، وحران، والرُها ، والجزيرة ، وملك غازي ميافارقين وجامي وجبل جوري [جودي] وما والاها ، وملك الحافظ أرسلان قلعة جعبر ، وملك الفائز ابراهيم قوص وأعمالها ، وملك الأفضل على الفيوم وأعمالها، وملك الأمجد حسن بعلبك وأعمالها ، وملك المغيث محمود الكرك والشوبك وملك فخر الدين يعقوب حلب وأعمالها ٠

وابنته الست خاتون هي واقفة المدرستين المنسوبتين إليها بدمشق ، وكانت عاقلة فاضلة كثيرة الصدقات ٠

وفي هذه السنة أخذت [أخذ] الفرنج دمياط[٢] لأن أهلها هلكوا من الجوع والوباء أيام الحصار ، وفتكوا [وفتك] الفرنج بهم وقتلوا وأسروا ، وعملوا جامعها كنيسة ، وبعثوا بالمصاحف ورؤوس القتلى الى بلاد الفرنج ، فبنى الملك الكامل صاحب مصر حينئذ مدينة وسماها المنصورة عند مفرق النيل، وسكنها بجيشه وحصنها ٠

وأما الغلاء[٣] الذي كان في أيام العادل فانه اشتد بمصر والشام ، ونقص النيل ، وأقبل القحط والوباء [٢١ ــ و]

(١) انظر مفرج الكروب : ٣/ ٢٥٥ ــ ٢٧٦ ٠
(٢) جاء في حاشية الأصل : « استيلاء الفرنج على دمياط » ٠ وقد حدث هذا سنة ٦١٦ ٠انظر مرآة الزمان : ٢/ ٦٠١ ٠ ٦٠٣ ٠
(٣) جاء في حاشية الأصل : الغلاء في أيام العادل ٠

المؤلم ، وخربت ديار مصر ، وخلا منها أهلها ، واشتد البلاء ، وأكلوا لحوم الآدميين ، وهلك خلق كثير من الأغنياء والفقراء، ووقع بعـد ذلك فناء عظيم ، ووبـاء كبير ، حتى أن السلطان الملك العادل كفن من ماله في مدة يسيرة في هذه السنة نحو مائتي ألف وعشرين ألف ميت[١] ، وأكلت الكلاب الأموات لعدم من يدفنها ، وأكل من الأطفال والصغار ، وخلق كثير ، يشـوي الصغير والداه ويأكلانه ، وكثر هـذا في الناس حتى لا ينكر بينهم ، ثـم صـاروا يحتالون على بعضهم بعضـاً فيأكلون من يقدرون عليه ، وإذا غلب القوي على الضعيف ، ذبحه وأكله، وفُقِـد خلق كثير من الأطباء في هـذه السنة ، يستدعون الى المريض فيذبحونهم ويأكلونهم ، وعظم الغلاء بدمشق، ونفذت خزائن الملك العادل ، وأكثر قرى مصر لم يبق بها آدمي من الموت ، وكان يخرج من القاهرة في اليوم نحو ألف وخمسمائة جنازة، وأما بظاهرها فلا عدد لهم، ودخل تحت قلم الحشرية في هذا الفناء بالقاهرة مائة ألف وأحد عشر ألف ميت ، إلا شيئاً يسيراً[٢] ، وهذا شيء قليل بالنسبة الى من مات في إقليم مصر، فلقد كان في بلد من بلدان مصر أربعمائة نـول للحياكة فلم يبق بها أحد وأشياء كثيرة [٢١ ـ ظ] أعرضنا عن ذكرها ، وتوفي الملك العادل المذكور في وصط [وسط] هـذه الشدة ، وهي حصار الفرنج والغلاء والوباء ، فاستراح رحمه الله تعالى.

وفي المحـرم سنة ست عشرة وسـتمائة : أخـرب المعظم القدس ، وذلك أن [أنـه] بلغـه أن الفرنج قـد عزموا على

---

(١) في حاشية الأصل : أعوذ بالله تعالى من سخطه وغضبه ٠

(٢) يقابل هذه الفقرة في الحاشية فقرة مطموسة تعذرت قراءتها ٠

التوجـه الى القدس ، فاتفقوا [فاتفق] الأمراء على هدمـه ، وقالوا : قد خلت الشام من العساكر ، فلو أخذوه [أخـذه] الفرنج حكموا على الشام ، وكـان بالقدس العزيز عثمان ، وعز الدين أيبك الاستدار، فكتب إليهما المعظم بهدمه، فتوقفا وقالا : نحن نحفظه ، فكتب إليهما المعظم : لو أخذوه لقتلوا كل من فيه ، وحكموا على دمشق ، وبلاد الاسلام، فشرعوا في خراب السور أول يوم من المحرم ، ووقع في القدس صيحة عظيمة ، وخرج [وخرجت] النسـاء المخدرات ، والبنـات والشيوخ ، والعجـائز ، والشـباب ، والصبيـان الى الأقصـى ، وقطعوا شعورهم ، ومزقوا ثيابهم ، وخرجوا هاربين ، وتركوا أموالهم وأهلهم ، ولم يشكوا أن الفرنج تصبحهم ، وجعل [وجعلت] النسـاء المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجـلهن من الحفاء ، ومات خلقاً كثيراً [خلق كثير] من [٢٢ ــ و] الجوع والعطش ، ، ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس ، وابيع القنطار [وبيع قنطار] الزيت بعشرة دراهم والرطل [ورطل] النحاس بنصف درهـم ، وذم الناس المعظم على ذلك ، فقال بعضهم :

في رجب حلـّـل الحميـا وأخرب القدس في المحرم

وكانت القدس حصينة جداً عظيمة البناء .

وفي سنة ثمان [ثماني] عشرة وستمائة(١) أخذ المسلمين [المسلمون] دمياط من الفرنج لأنهم خرجوا في أهبـة كاملة ليغيروا على الغـربية في زيادة النيل ، ففتح الملك الكامل عليهم

(١) في حاشية الأصل : فتح دمياط .

سداً ، فأحاط بهم الماء بحيث أنهم لا يقدرون على الوصول الى دمياط ، فأحدق بهم جيش المسلمين ، وكان مع الفرنج صاحب عكا وعسكره ، فلما عاينوا الهلاك بذلوا دمياط ، فلو صبر الكامل يومين لأسرهم ·

وبعث إليهم ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب وصالحهم، وجاءت [جاء] ملوك الفرنج الى خدمة السلطان الملك الكامل ، وأنعم عليهم ، وكان قد وصل إليه أخواه [٢٢ ـ ظ] الملك المعظم عيسى ، والملك الأشرف موسى بجيوشهما ، فمد الملك الكامل سماطا عظيما ، وحضره ملوك الفرنج ، فوقف المعظم والأشرف في خدمة أخيهما الملك الكامل ، وكان يوماً مشهوداً ، واتفق أن الملك الكامل اسمه محمد ، وأخواه اسمهما : موسى وعيسى ، فقام راجح[١] الشاعر وعمل قصيدة ، وأنشدها في الحضرة ، ومنها :

ونادى لسان الحال في الأرض رافعاً
عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعبَّاد عيسى إن عيسى وحزبه
وموسى جميعاً ينصران محمدا

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة: أقبلت [أقبل] الفرنج في البحر ، وخرجوا الى الساحل ، وملكوا صيدا ، وكانت مناصفة بيننا وبينهم[٢] ·

وفي سنة خمس وأربعين وستمائة : حاصر الملك الصالح نجم الدين أيوب عسقلان وطبرية على يد فخر الدين بن الشيخ

---

(١) الحلي · انظر الخبر مفصلا ، والقصيدة بما فيها هذين البيتين مع شيء من الخلاف ، في مرآة الزمان : ٢/٦١٨ ـ ٦٢١ ·

(٢) انظر مرآة الزمان : ٢/٦٥٢ ·

وأخذهما من الفرنـج ، وأخـذ بُصرى وصرخـد والصبيبة والصلت[1] ، وعمر سور القدس ، ورجع الى مصر ٠

وفي هذه [٢٣ ــ و] السنة[2] هجمت [هجم] الفرنج على دمياط وأخذوها بلا طعنة ولا ضربـة ، وكان السلطان نجم الدين نازلا بالمنصورة ، وهي على بريـد من دمياط ، فغضب وشنق من أعيانها ستين نفساً ، فقالوا : ايش ذنبنـا إذا كان عسكرنا هربوا [هرب] فما نصنع نحن ، ففزع العسكر مـن السلطان وصطوتـه [وسطوته] وكـان السلطان مريضـاً ، فأرادوا [فأراد] مماليكه قتله لأنه شنق هؤلاء بغـير ذنب ، فقال لهم فخر الدين بن الشيخ : اصبروا عليه فهـو على شفا جرف ، فان مات فقد استرحتم منه ، وإلا فهو بين أيديكم ، ثم إنه قتل فخر الدين بن الشيخ ، ثم لم يعيش [يعش] السلطان نجم الدين بعد ذلك إلا أيام [أياماً] قليلة ، وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العـادل أبو بكر بن أيوب ، وكان ملكاً مهيبا هيبة عظيمة ، جباراً سفاكا للدماء ، ولم يكن إلا قتل أخيه العادل ، فلما قتله رأى في نفسه العبر ، ولم ينفعه الحذر ، ومات بالمنصورة ، فكتمت شجر[3] الدر أم خليل زوجته موتـه ، وبقيت [٢٣ ــ ظ] تعـلم على التواقيع والمناشير ولا ينـكر ذلك ، وأقام عشرة أيـام ميتاً

---

(١) هي السلط الحالية في المملكة الاردنية ٠

(٢) ليس سنة خمس وأربعين بل سنة سبع وأربعين ــ انظر مرآة الزمان : ٧٧٢/٢ ــ ٧٧٣ ٠

(٣) الحديث هنا عن حمـلة القديس لويس على مصر ، وأم خليل أرمـلة السلطان شهرت في المصادر باسم « شجرة الدر » ٠ انظر شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : ٣٧٨ ــ ٣٨٢ ــ ٠

لا يدري به أحد ، ودفن بتربتـه بالقاهرة ، وهو الذي عمَّر المدارس بين القصرين المنسوبين إليـه ، وكانت مملكته على مصر عشرة [عشر] سنين ، وهو الثامن من ملوك بني أيوب ، وكانت العساكر قد حلفت قبل موته لولده المعظم توران شاه ، وكان بحصن كيفا ، فساق إليه أقطاي الأكبر ، وسلك البريه ، وأسرع بـه الى دمشق ، فدخلهـا في أواخر رمضـان في دست السلطنة، وأخذ أموال السلطنة وأنفقها على الأمراء ، ثم توجه من دمشق ووصل الى المنصورة ، وجلس على التخت ، وأقـام عزاء والـده ، والدنيا يومئذ بلا خليفـة ، لأن التتـار قتلت الخليفة المستعصم ببغداد ، واستولت على بغداد ، والمستعصم هذا آخر الخلفاء ببغداد .

وجرى في هذه الأيام من الحروب بين المسلمين والفرنج على بر المنصورة ما يطول شرحهـا ، ولا يسع هـذا المختصر ذكرها ، وظهر النصر [٢٤ ـ و] للمسلمين وقتلوا من الفرنج ثلاثين ألفاً ، وأسـروا الفرنسيس ، الملك الأعظـم للفرنج ، وكان يوم سرور لا يعهد مثله، وكان هذا النصر العظيم في أول يوم من سنة ثمان وأربعين وستمائة ، هذا وسواحل الشـام كلها في يد الفرنج وهو الطراز الأخضر ، وهو ما بين جبـل لبنـان وبحر الـروم وهـم هيفا(١) وأرسـوف وقيسارية ، وعسقلان ، وعـكا ، وصـور وعذنون وتبنـين والشقيف ، وصيدا ، وبيروت ، وجبيل ، وأنفه ، والبثرون ، وطرابلس، وأنطرطوس ، وجزيرة أرواد ، والمرقب ، وجبلة ، واللاذقية، والدنيا يومئذ بلا خليفة ، وكان قد وقعت العداوة بين الملك

(١) كذا بالأصل ولعلها تصحيف صوابه « حيفا » .

عماد الدين اسماعيل وبين أخوته قبل هذه المدة ، وهو يومئذ صاحب دمشق، فوهب قلعة الشقيف للفرنج ليؤازروه ويعينوه، فانكر عليه العلماء والأمراء والعوام ذلك ، وكان رئيسهم ابن عبد السلام[١] خطيب دمشق ، وأبو عمرو بن الحاجب[٢] المالكي، وزادوا [زادا] في الانكار عليه فعزلهما وحبسهما بقلعة دمشق [٢٤ ـ ظ] .

وأما الفرنسيس ملك الفرنج فقبضوا عليه ، وأسروه وحبسوه في دار ابن لقمان بالقاهرة[٣] ، ورسم عليه صبيح الطواشي .

ثم بعد هذه الوقعة بثمان وعشرون [وعشرين] يوماً قتل الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكان فيه نوع خفّة وناقص السياسة ، قتلوه [قتله] مماليك والده ، وكان ملكه أحد [واحداً] وسبعين يوماً [٤] .

ثم تسلطن [تسلطنت] بعده أم خليل شجر الدر[٥] ،

---

(١) عبد العزيز بن السلام (٥٧٧ ـ ٦٦٠ هـ / ١١٨١ ـ ١٢٦٢ م) سلطان العلماء ، من كبار فقهاء الشافعية ولد في دمشق ، وفيها نشأ وتعلم وتسلم أعلى المناصب وبعد خروجه من السجن توجه الى القاهرة حيث شغل دوراً بارز الأهمية وفي القاهرة توفي ، وقد صنف عدداً من الكتب . الأعلام للزركلي .

(٢) عثمان بن عمر ، فقيه مالكي ومن كبار علماء العربية ولد في صعيد مصر ونشأ في القاهرة ، وسكن دمشق ومات بالاسكندرية سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٩م، له العديد من الكتب . الأعلام للزركلي .

(٣) كذا بالأصل والمشهور بالمنصورة .

(٤) انظر ترجمته في شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : ٤٢٦ ـ ٤٢٩ . وانظر أيضاً مرآة الزمان : ٢/٧٨١ ـ ٧٨٣ .

(٥) في الحاشية : سلطنة أم خليل شجر الدر .

وخطب لها على المنابر بالقاهرة ومصر ، وحلفوا [وحلف] لها العساكر ، وهي شجر الدر بنت عبد الله جارية الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأم ولده خليل ، وخطب لها على المنابر بالديار المصرية ، وكانت تعلم على التواقيع والمناشير « والدة خليل » واستقرت بالسلطنة ، وخلعت على الأمراء ، وأنفقت الأموال ، وزادت في العطاء ، وكثر الدعاء إليها ، وأظهرت العـدل .

ثم دخل الأمير حسام الدين بن أبي علي في قضية الفرنسيس ملك الفرنج المأسور على أن يسلم دمياط [٢٥ ـ و] ويحمـل خمسمائة ألف دينار ، فأجابت شجر الدر والأمراء الى ذلك ، فأركبوه بغله ، وساق حوله الجيش الى باب دمياط، فما وصلوا إلا والمسـلمين [المسلمون] على أعلاها بالتكبير والتهليـل ، والفرنج قد فروا منهـا الى المراكب ، وأخلوهـا فلما رأى الفرنسيس ذلك خاف خوفاً شديداً .

ثم قال حسام الدين : هذه دمياط قد حصلت لنا ، وهـذا الفرنسيس في أسرنا ، وهو عظيم ملوك الفرنج ، وقد أطلع على عوراتنا، وعلم بقتل سلطاننا، وأن ملكنا امرأة ، فالمصلحة تركه في أسرنا ، فقال الأمير أيبك : ما أرى الغدر .

فقال الأمير حسام الدين للفرنسيس : كم عـدة الجيش الذي جئت به لما أخذتم دمياط ، فقـال : كان الجيش تسعة آلاف فارس ، ومائة ألف وثلاثين ألف جرجري غـير التجار والغلمان ، وكان اطلاقه بعد أربعة أيام من قتلة الملك المعظم، فدفع إليهم المـال ، فباعوه والله بأهون ثمن ، فلمـا صار هو وامراؤه [٢٥ ـ ظ] في البحر ، بعث يقول : ما رأيت أقـل

عقـلا منكم ولا أضعف دين [ديناً] ولا أوهن رأي [رأيا] ، قتلتم سلطانكم ، وملكتم عليكم امرأة ، وبعتموني ــ وأنا ملك البحر ــ بهذا الثمن اليسير ، وحق ديني لو طلبتم مني مملكتي دفعتها إليكم ، حتى أخلص ·

وكان الفرنسيس مقيداً محبوساً بدار ابن لقمان، وصبيح الطواشي سجّان عليه ، فلما صار الفرنسيس في بلاده تعظم وتكبر ، وهمّ بغزو المسلمين ، فأرسل الى السلطان الملك المعز ايبك يتوعده بكتاب ورد من عنده ، فأجابه السلطان بكتاب وفيه هذه الأبيات :

قـل للفرنسيس إذا جئتـه
كـلام صـدق بلسـان فصـيح

أجـارك الله عـلى ما فعلـت مـن
[قتـل] عبـادا يسـوع المسيـح

أتيـت مصـرأ تبتغـي ملكهـا
حسبت أن الزمـر بالجهـل ريـح

فسـاقـك الآن إلـى أدهـم
ضـاق بـه في ناظريك الفسـيح

وجمـع أصحابـك خلفتهـم
من سوء تدبيرك وصط [وسط] الضريح

مـائة ألـف في مـائة ألـف ما
منهم إلا قتيل أو أسير جريح [٢٦ــو]

وفقك الله لأمثالها
لعل عيسى منكم يستريح

وقل لهم إن ارغموا عودة
لأخذ ثار أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق والطواشي صبيح[1]

ثم إن المسلمين هدموا سور دمياط ، وتركوها خاوية على عروشها ، وكان سورها من بناء المتوكل على الله[2] ٠

وفي سنة اثني [اثنتين] وستين وستمائة : نازل السلطان الملك الظاهر بيبرس مدينة قيسارية الشام وأخذها من الفرنج، ثم سار الى أرسوف ، وفتحها بالسيف وطرد الفرنج منها[3] ٠

وفي سنة أربع وستين وستمائة : أغارت عساكر الاسلام على أعمال مدينة صور وطرابلس ، ثم نزلوا على صفد ، وحاصروا الفرنج بها أربعين يوماً، وأخذت بالخديعة وضربت رقاب مائتين من فرسانها ، وقد قتل عليها من المسلمين خلق كثير ، منهم الأمير الكبير جمال الدين ايدغري العزيزي[4] ٠

(١) انظر السلوك للمقريزي: ١/٢/٣٦٣ ـ ٣٦٤ مع فوارق كبرى ٠
(٢) انظر السلوك : ١/٢/٣٧٢ ٠
(٣) ذكر ذلك للمقريزي في حوادث سنة ٤٦٣ ـ انظر السلوك : ١/٢/٥٢٤ـ ٥٢٩ ٠ ويلاحظ هنا أن المصنف لم يات على ذكر الغزو المغولي لبلاد الشام ومعركة عين جالوت ٠
(٤) انظر السلوك : ١/٢/٥٤٤ ـ ٥٤٨ ٠

وفي سنة خمس وستين وستمائة : فتح السلطان الملك الظاهر يافا وهدمها ، وهدم قلعتها ، ثم سار منها قاصداً قلعة الشقيف ، ونزل تحتها بوادي العواميد ، وحاصرها فوجدها مانعة حصينة جداً [٢٦ ـ ظ] ثم رحل الى أعلاها فلم يقدر عليها ثم كشف عن مائها فلما كان الليل وأهل القلعة نيام إذ ذبح في الماء عدة من البقر والغنم ورمى بدمائها وكروشها في الماء وقطعه ·

فلما أصبح وجدوا ماءهم دماً غبيطا [عبيطا] منتنا ، فسلموا بعد حصار عشرة أيام ، وبنى برجاً على باب القلعة ، وتسمى شقيف تيرون ، وهو اسم رجل ، وهذه القلعة حصينة جداً لا يُقدر عليها ، وبعضها نحت في الشقيف ، وبعضها عمارة ، وهي شرقي صيدا بينها وبين دمشق ، وقلعة أرنون أيضاً حصينة جداً ، وهي بالقرب منها على خمس [خمسة] فراسخ ·

ثم أغار السلطان الملك الظاهر على بلاد طرابلس ، وقطع أشجارها ، ثم نازل أنطاكية بغتة وافتتحها في أربعة أيام ، وقتل بها أكثر من أربعين ألفاً من الفرنج ، ثم أخذ بغراس بالأمان(١) ·

وفي سنة ثمان وستين وستمائة : فتح الملك الظاهر الحصون الاسماعيلية ، وأمر على الحصون الاسماعيلية نجم الدين حسن بن المشغراني ، وقرر عليه [٢٧ ـ و] أن يحمل في كل عام مائة ألف درهم ، والمشغراني نسبة الى مشغرا ، وهي

(١) ذكر ذلك المقريزي في حوادث سنة ست وستين وستمائة · انظر السلوك : ١/٢/٥٦٢ ـ ٥٧٠ ·

قرية كبيرة نزهة كثيرة المياه ، وهي بسفح لبنان الشرقي بين صيدا ودمشق[1] ٠

وفي سنة تسع وستين وستمائة : افتتح الملك الظاهر حصن الأكراد بالسيف ، ثم نازل عكا ، وأخذها بالأمان فخضع له صاحب طرابلس ، وهادنه عشرة [عشر] سنين[2] ٠

وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة : قدم الملك الظاهر الى دمشق ، ثم غزا سيس ، وفتح أياس وأذنة والمصيصة[3] ٠

وفي سنة ست وسبعين وستمائة : قدم الملك الظاهر الى دمشق ونزل بالقصر الأبلق جوار الميدان الأخضر، ومات هناك رحمة الله عليه ، وحمل في محفة الى قلعة دمشق ، فرأى ولده الملك السعيد أن يدفنه داخل سور دمشق،فدفن بدار العقيقي، وعمل عليه قبة شاهقة فوق الضريح[4] ، وكان له من الأولاد : نجم الدين محمد وهو الملك السعيد ،والملك نجم الدين خضر، والملك بدر الدين سلامش ، وكان له سبع بنات وأربع نساء ، وكان له أربعة [٢٧ ـ ظ] آلاف مملوك، وكان عفيف النفس، شريف الطبع عادلا كثير الصدقات ، وهو الذي أصلح قبر خالد ابن الوليد بحمص ، ووقف عليه وقفاً جيداً ، وفتح الفتوحات

---

(١) انظر السلوك : ١/٢/٥٨٦ ـ ٥٨٧ ٠

(٢) انظر السلوك : ١/٢/٥٩٠ ـ ٥٩١ ٠

(٣) كانت سيس عاصمة أرمينية ، وأذنه هي أضنه الحالية في تركية ، والمصيصة كانت من مشاهير مدن الثغور الشامية ، أما أياس فكانت مدينة ثغرية واقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ٠ انظر السلوك : ١/٢/٦١٧ ـ ٦١٨ ٠

(٤) قبر الظاهر بيبرس مشهور في دمشق ، حيث دار الكتب الوطنية ـ المكتبة الظاهرية ـ ٠

الكثيرة بعــد استيلاء الفرنج عليهــا ، من ذلــك : قيســارية وأرسوف ، وصفت ، وطبرية ، ويافا ، والشقيف ، وأنطاكية وبغراس، والقصير ، وحصن الأكراد، وحصن عكار، والقُرين وصــافيتا ، ومرقيــة ، والمرقب ، وبلنيــاس ، وأنطرسوس ودربساك ، ودركوش ، وتلميش ، وكفردنــين [وكفرذبين] ورعيان [رعبــان] والمرزبان ؛ والذي صار إليــه من أيدي المسلمين : دمشق وبعلبك ، وعجلون ، وبصرى ، وصرخــد ، والصلت ، وحمص، وتدمر ، والرحبة ، وتل باشر ،وصهيون، وبلاطنس ، وبرزية ، والحصون الاسماعيلية ، وهي : الكهف، والقدموس ، والمنيفــة ، والقليعــة ، والــكرك ، والشوبك وشيزر ، والبيره ، والبلاد الشمالية ، وفتح الله على يديه بلاد النوبة ، وهي أقاليم [٢٨ ـ و] كثيرة واسعة ، وأمم كثيرة ، ودنقلة ، وكانت حدود مملكته من أقصى بلاد النوبة الى قاطع الفراة ، وعمر بقلعة الجبل دار الذهب، وجدد الجامع الأنور ، والجامع الأزهر ، وبنى جامع الحسينية ، وجدد قلعة الجزيرة، وقلعة السويس ، وجدد الجسر الأعظم على بركة الفيل وأنشأ قنطرته ، وجدد جسر ابن منجا ، وتمم عمارة حرم النبي ﷺ ، وعمل منبره، وذهب سقوفه وجددها، وجدد المارستان بالمدينة النبويةونقل إليه سائر المعاجين والأكحالوالأشربة،وجدد قبر الخليل عليه السلام وزاد في وقفه ، وجدد بيت المقدس ، وأنشأ خاناً للسبيل بالقاهرة ، وبنــى على قبر موسى عليــه السلام قبة ، وهو عند الكثيب الأحمر قبلي أريحا ٠

وكانت مدة سلطنته قريباً من سبعة عشر [سبع عشرة]سنة،

وقد جمع شمس الدين الذهبي سيرته في مجلدين ، رحمه الله تعالى[1] ٠

وتسلطن بعده ولده الملك السعيد محمد أبو المعالي بركة قان وذلك في شهر صفر سنة خمس [ست] وسبعين وستمائة[2] ٠

وفي سنة [٢٨ ــ ظ] ثمان وثمانين وستمائة : مات الملعون صاحب طرابلس البرنس ، فخرج السلطان قلاوون بالجيوش المنصورة وبادر إليها فنازلها وضربها بالمناجيق ، ودام عليها الحصار ثلاثاً وثلاثين يوما ، ثم أخذها بالسيف ، وقتل عليها خلق كثير من المسلمين ، ثم أخربها [خرّبها] السلطان قلاوون وأحرقها ، وبنيت مدينة على نصف فرسخ منها فسكنها المسلمون ٠

وكان لطرابلس في أيدي الفرنج مائة سنة وخمس وثمانون سنة ، وكان أول أخذها من المسلمين بعد حصار خمس سنين وأشهر ، ففتحها السلطان قلاوون في ثلاثة وثلاثين يوماً ، وهو آخر فتحها [3] ٠

قال أصحاب التاريخ : ثم قدم الى عكا فرنج غرباء فثاروا بها ، وقتلوا من كان بها من تجار المسلمين ، وكانت عكا في أيدي الفرنج ، فبلغ السلطان ذلك فغضب وتأهب لغزو عكا ، فأدركته المنية ، وتوفي السلطان الملك المنصور قلاوون في ذي القعدة من هذه السنة ، وعمره قريباً من ستين سنة ، وكان فارسا شجاعا بطلا خبيرا سائسا مهيبا ، تام الشكل ، مليح

---

(١) انظر السلوك : ١/٢/٦٣٥ ــ ٦٤١ ٠
(٢) انظر السلوك : ١/٢/٦٤١ ــ ٦٤٣ ٠
(٣) انظر البداية والنهاية : ١٣/٣١٣ ٠

الصورة [٢٩ ـ و] فارساً ، كثير الوفاء ، دري اللون، مستدير الوجه ، خفيف اللحيـة ، عليه جلالة عظيمـة ، وكانت مـدة سلطنته إحدى عشر [عشرة] سنة وأربعـة أشهر ، وتسلطن بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل ، وعمره أربعين [أربعون] سنة(١) .

وفي سنة تسعين وستمائة : تجهز الملك الأشرف خليل لغزو عكا ونازلها رابع شهر ربيـع الأول بجيوش الاسلام وبأمـم لا يحصي عددهم إلا الله تعالى ، وأبلوا في الحصار ، وأعانهم عسكر قبرص ، ثم أيقنوا بالغلبة وشرعوا بالهرب في البحر ، واستشهد عليها من المسلمين خلق كثير ، وثبت الفرنج ثباتاً كليا ، وقاتلوا قتالا عظيما ، وثبت لاجين نائب الشام ثبـاتا حسناثم عمل السلطان كوسات عظيمة زنة ثلاثمائة حمـل ، فزحف الجيش على عكا سحر يوم الجمعة سـابع عشر جمادى الأول ، فانقلبت الأرض بضـرب الكوسـات ، فحـين لاصق المسلمين [المسلمون] الصور [السور] هربت [هرب] الفرنج الى البحـر ، وطلعت الرايات المنصورة ، ونكست الصلبان ، وبذل السيف مع طلوع الشمس وهدمت [٢٩ ـ ظ] أبراج عكا وأسوارها ، وكانت عـكا أخذت أولا سنة سـبع وثمانين وأربعمائة ، ثم أخذتها [أخذها] الفرنج بالسيف سـنة ست وتسعين وأربعمائة ، فدامت في أيـدي الفرنج الى أن فتحهـا صلاح الدين يوسف بن أيوب فيسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ثم أخذتها [أخذها] الفرنج ودامت في أيديهم الى هذه السنة .

وأما أهل مدينة صور فان الفرنج الذين بها لمـا رأوا

---

(١) حدث هذا سنة تسـع وثمـانين وستمائة . انظر البدايـة والنهـاية : ١٣/٣١٦ ـ ٣١٨ .

الدخان والنيران في جنبات عكا هرب أهلها ، وأخـلوا البلد ، وكانت صور حصينة مانعة جداً الى الغاية ، فدخل الصوابي والي تلك الناحية الى صور ، وكتب يبشر السلطان بذلك وهو على عكا ، فأمره باخراب صور فأخربها، وهدمها ، وكان بصور خلق كثير من المسلمين ، فلم يقتلوا وأقاموا بها ، وكان لصور في يدي الفرنج مائة وسبعين سنة ·

وأما مدينة صيدا فسار [فسارت] إليها فرقة من الجيش، وأحاطوا بهـا وافتتحوها وأخربوهـا وأخـربوا [وخربوها وخربوا] قلعتها ، وأما أهل بيروت فكانوا متمسكين [٣٠ـو] بهدنة ، فبدا منهم شراً [شر] لأمراء من المسلمين كانوا بالقرب منهم ، وعملوا عليهم حيلة ، ونصبوا لهم الشرك حتى أوقعوهم وقتلوا أكثرهم تهوراً ، ثم إنهم خافوا وأغلقوها ، فسار إليهم علم الدين سنجـر الشجاعي ، وحاصرها وأخذهـا في رجب ، وأسر أهلها ، ودك قلعتها ، وهدم أسوارها ، وكانت قلعتها حصينة مانعة جداً ·

ثم إن الشجاعي سار الى جبيل ، وكانت الأفرنج بها تحت الطاعة ، فطرد الفرنج منها وهدمها ودك قلعتها ·

وأما أهل عثليث فانهم لما علموا بفتح صور وعكا ، هربوا منها وأحرقوا مالم يقدروا على حمـله ، وتنظف الشـام من الفرنج من تلك السنة ، ولله تعالى الحمد ·

ثم قـدم السلطان الى دمشق مؤيـداً منصوراً ، وزينت دمشق ، وكان يومـاً مشهوداً · وقـال المولى الرئيس الفاضل شهاب الديـن محمود بن سليمان الموقـع ، وأنشدها للملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون يوم فتح عكا ، وهي

في روي قصيد أبي تمام في المعتصم لما فتح عمورية [٣٠ـظ] :

الله أكبر ذلت دولة الصُلُب
وعز بالترك دين المصطفى العربي

ما بعد عكا وقد هدت قواعدها
في البحر للشرك عند البر من أرب

عقيلة ذهبت أيدي الدهور بها
دهراً وشدت عليها كف مغترب

لم يبق من بعدها للكفر مذ خربت
في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب

أم الحروب فكم قد أنشأت فتناً
شاب الوليد لها هولا ولم تشب

سوران بر وبحر حول ساحتها
داراً فأدناهما أدنى الى العطب

مصفح بصفاح حولها شرف
من الرماح وأبراج من الجلب

مثل الغمائم تهوى من صواعقها
بالنبل أضعاف ما تهوى من السحب

كأنما كل برج حوله فلك
من المجانيق ترمي الأرض بالشهب

ففاجـأتهـا جنـــود الله يقــدمهـا
غضبـــان لله لا للمـــلك والنشـــب

ليث أبى أن يــرد الوجــه عــن فــرق
يدعـون رب الـــورى سـبحانه راب

كـم رامهـا ورماهـا قبـله ملك
جم الجيوش فلـم يظفر ولـم يصب

لـم يلهـه ملكـه بـل في أوائـله
نـال الذي لـم ينـله الناس في الحـرب

لـم ترض همتـه إلا الـذي قعـدت
للعجز عنها ملوك العجم والعرب [٣١ــو]

فأصبحت وهـي في بحرين واقفـة
مـا بـين مضطـرم نـار وملتهب

جيش من الترك ترك الحرب عندهم
عـار وراحتهم ضرب مـن الوصـب

يا يـوم عـكا لقـد أنسيت ما سبقت
بـه الفتوح وما قـد خط في الكتب

أغضبـت عبـاد عيسـى إذ أبـدتهـم
لله أي رضـى في ذلـك الغضـب

وخاضت البيض في بحـر الدمـاء كمـا
أبـدت من البيض الآسـاق مختضب

أبحـرت للبحـر بحـراً من دمائهم
فـراح كالراح إذ عرفـاه كالحبب

بشـراك يا ملك الدنيـا لقـد شرفت
بـك الممالك واستعلت على الرتبْ

مـا بعـد عـكا وإن لانت عريكتهـا
لديـك شـيء تلاقيـه على تعـب

أتيتهـا يا صـلاح الديـن معتقـداً
بأن ظـن صـلاح الدين لـم يخب

أدركت ثار صلاح الديـن إذ غصبت
منـه لشـر طـواه الله فـي اللقـب

وجئتهـم بجيـوش كالسـيول عـلى
أمثالهـا بـين آجـام مـن القصب

فـكم تركت عـزيز النصـر مبتهجـاً
بـكل فتـح قريب النجـح مرتقب(١)

نجـز الكتاب والحمد لله وحده ، على يـد مصنفه وكاتبه فقير عفو الله تعالى أحمد بن علي الحريري ، في أواخر شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل [٣١ ـ ظ] .

(١) نظر البداية والنهاية : ١٣/٣٢٠ ـ ٣٢٣ . المختصر في أخبار البشر : ٤/٢٤ ـ ٢٦ .

مصادر الدراسة والتحقيق

ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي)

١ ــ الكامل في التاريخ ــ ط · القاهرة ١٣٤٨ هـ ·

٢ ــ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ط · القاهرة ١٩٦٣ م ·

ابن الأثير الحلبي (اسماعيل)

١ ــ عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار ·
نسخة مصورة خاصة ·

الأصفهاني (محمد بن محمد العماد الكاتب)

١ ــ تاريخ دولة آل سلجوق ــ هذبه الفتح البنداري
ط · القاهرة ١٩٠٠ م ·

البنداري (الفتــح)

١ ــ سنا البرق الشامي ــ ط · بيروت

ابن الجوزي (عبد الرحمن)

١ ــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ــ ط · حيدر أباد ١٩٤٠ م ·

الحسيني (أبو الحسن علي)

١ ــ أخبار الدولة السلجوقية ــ ط · لاهور ١٩٣٢ م ·

الحموي (محمد)

١ ـ التاريخ المنصوري ـ ط · موسكو ١٩٦٠ م ·

الحموي (ياقوت بن عبد الله)

١ ـ ارشاد الأريب الى معرفة الأديب (معجم الادباء)
ط · القاهرة ١٩٠٧ م ·

٢ ـ معجم البلدان ـ بيروت ١٩٦٨ م ·

الحنبلي (أحمد بن ابراهيم)

١ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ـ ط · بغداد ١٩٧٨ م ·

ابن أبي الدم (ابراهيم)

١ ـ تاريخ ابن أبي الدم ـ نسخة مصورة خاصة ·

الراوندي (محمد بن علي)

١ ـ راحة الصدور وآية السرور
ترجمة عربية ـ ط · القاهرة ١٩٦٠ م ·

زكار (سهيل)

١ ـ مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ـ ط · دمشق ١٩٧٥ م ·

٢ ـ مختارات من كتابات المؤرخين العرب ـ ط · دمشق ١٩٧١ م ·

سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزا أوغلي)

١ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ـ نسخة خطية خاصة · جزئان ـ
ط · حيدر أباد ١٩٥١ م ·

أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل)

الروضتين في أخبار الدولتين ـ النورية والصلاحية ـ
ـط ٠ بيروت ـ دار الجيل ٠

ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد)

١ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب ـ نسخة خطية خاصة ٠
٢ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب ـ ط ٠ دمشق ١٩٥١ـ١٩٦٨م ٠

العظيمي (محمد بن علي)

١ ـ تاريخ العظيمي ـ نسخة خطية خاصة ٠

الغزالي (أبو حامد)

١ ـ التبر المسبوك في نصيحة الملوك ـ ط٠ القاهرة ١٩٦٨ ٠

الفارقي (ابن الأزرق)

١ ـ تاريخ الفارقي ـ ط٠ القاهرة ١٩٥٩ ـ مع قطعة خطية خاصة ٠

أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل)

١ ـ تقويم البلدان ـ ط ٠ باريس ١٨٤٠ م ٠
٢ ـ المختصر في أخبار البشر ـ بيروت : دار المعرفة ٠

ابن القلانسي (حمزة)

١ ـ ذيل تاريخ دمشق ـ بيروت ١٩٠٨ م ٠

ابن كثير (اسماعيل بن عمر)

١ ـ البداية والنهاية ـ ط ٠ القاهرة ١٩٣٢ ٠

مجهـول

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس
ترجمة عربية ـ ط ٠ القاهرة ١٩٥٨م ٠

المقريزي (أحمد بن علي)

١ ــ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ــ نسخة خطية خــاصة ٠

٢ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك ــ ط ٠ القاهرة ١٩٥٦ . . . .

ابن أبي الهيجاء

١ ــ تاريخ ابن أبي الهيجاء ــ نسخة مصورة خاصة ٠

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ــ ط ٠ القاهرة ١٩٥٣ م ٠

ابن الوردي (عمر)

١ ــ تتمة المختصر في أخبار البشر ــ ط ٠ القاهرة ١٩٦٨ ٠

- A History of the crusades. Philadelphia 1955
- Lamb, Harold, the crusades iron men and Saints, London 1930
- Millo, Clark's the history of the crusades, philadelphia 1944
- Runciman, Steven, a history of the Crusades, penguin eden .
- Of Tyre, william , a history of deed's Done beyond the Sea, New york 1976

الفهرس

ثبت الموضوعات

تصويـــب

ص	الصـــواب	الخطــا
٦	قصر سبتيم سيفير	قصر سبتيم سيفير
٤٠	الجامع الاموي	٨ ـ الجامع الاموي
١١٢	ايكو شاماغان	ايكوشا ساغان
١٣٣	فسيفساء مادبا	جرش ـ الفورم
١٣٤	القدس ـ المسجد الاقصى	جرش ـ المسرح والفورم
١٧١	جرش ـ المسرح والفوروم	مدينة الخليل في فلسطين
٢٠٢	مخطط قصر أسيس في بادية الشام	نفس الشرح +
٢١٠	أ ـ مخطط قصر المشتى	٢ ـ مخطط قصير عمره
	ب ـ مخطط مدينة المفجر والقصر في لبنان	مخطط مدينة عنجر في لبنان
٢١٩	أ ـ مخطط قصر المفجر	واجهة قصر المشتى ـ
	ب ـ واجهة قصر المشتى	مع المخطط

مـن منشوراتنـا

١ ـ مائـة أوائل من تراثنـا

تأليف الدكتور سهيل زكار ـ المحامي أحمد غسان سبانو

٢ ـ الكسب للامام محمد بن الحسن الشيباني

تحقيق الدكتـور سهيـل زكـار

٣ ـ أخبـار القرامطـة في الاحساء والشام والعراق واليمن

تحقيق الدكتـور سهيـل زكـار

نشر وتوزيع

عبد الهادي حرصوني

دمشق ـ ص٠ب ٣٢١٨

مكتبة دار الملاح

دمشق

هذا الكتاب

- في مقدمته محاولة عربية جادة لتعليل تاريخ الحروب الصليبية .
- وفي متنه سرد تاريخي مكثف لأحداث هذه الحروب .